

مسألة خلق القرآن

وموقف علماء القيروان منها ودورهم في الذب عن مذهب السلف فيها

تأليف
أ.د. فهد بن عبد الرحمن بن سليمان الرومي
أستاذ ورئيس قسم الدراسات القرآنية
كلية المعلمين - بالرياض



مكتبة
التوبة

دراسات قرآنية
(٦)

مسألة خلق القرآن

وموقف علماء القيروان منها ودورهم في الذب عن مذهب السلف فيها

تأليف
أ.د. فهد بن عبد الرحمن بن سليمان الرومي
أستاذ ورئيس قسم الدراسات القرآنية
كلية المعلمين - بالرياض

مكتبة
التوبة

ⓒ مكتبة التوبة، ١٤١٧ هـ.
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
الرومي، فهد عبد الرحمن
مسألة خلق القرآن.ـ الرياض.
... ص؛ ... سم.ـ (دراسات قرآنية، ٦)
ردمك ٢ ـ ٨ ـ ٩١٣٠ ـ ٩٩٦٠
١ ـ القرآن ـ دراسة عامة أ ـ العنوان ب ـ السلسلة
ديوي ٢٢٧ ١٧/١٥٦٢

رقم الإيداع: ١٧/١٥٦٢
ردمك ٢ ـ ٨ ـ ٩١٣٠ ـ ٩٩٦٠

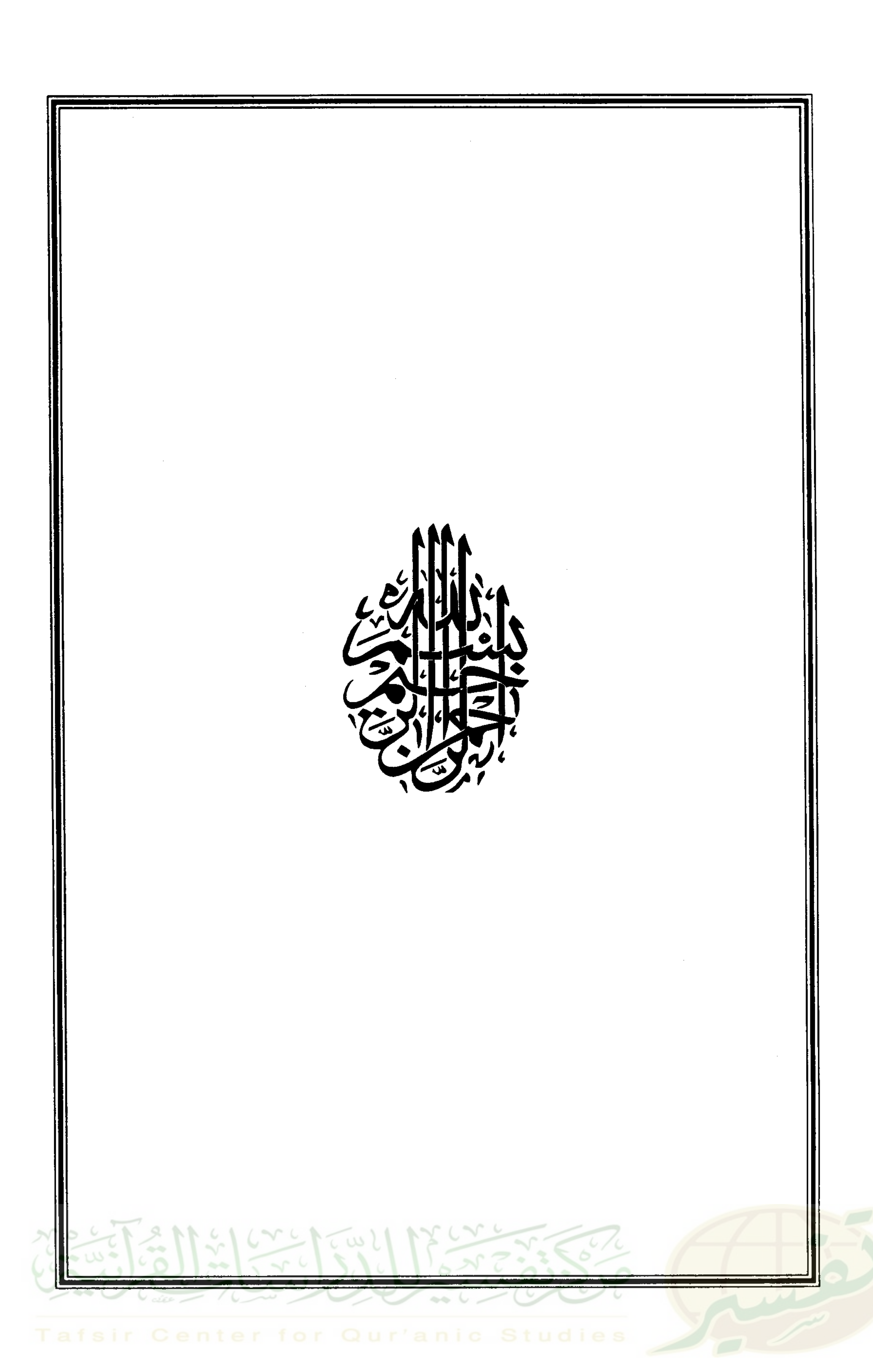
الطبعة الأولى
١٤١٧هـ ـ ١٩٩٧م

عنوان المؤلف:

أ.د فهد بن عبد الرحمن بن سليمان الرومي

ص.ب. ١٥١٧٦ الرياض ١١٤٤٤

السعودية. هاتف: ٤٧٦٦٢٧٩


بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد:

حين أنعم الله عليَّ بزيارة القيروان في ذي القعدة من عام ١٤١٤هـ للمشاركة في الملتقى العلمي الثالث، أهدى إليَّ سعادة مدير مركز الدارسات الإسلامية عدداً من الكتب القيمة التي أصدرها المركز ومن ضمنها: (القيروان عبر الندوات الإسلامية)، وقد سعدت بقراءتها والاستفادة من أبحاثها وكان من ضمن تلك الأبحاث بحث قيم للأستاذ عبد المجيد النجار عن: (دور القيروان في تلقي الأشعرية ونشرها) الذي جاء فيه قوله: «لم يكن سائداً بأفريقية منذ سنون فقه مالك فحسب، بل ومذهبه في العقيدة أيضاً....»[1]، وقد أثارت هذه العبارة في ذهني تساؤلات كثيرة عن معنى المذهب هل هو خاص بمسائل الفروع أو بها وبالأصول أيضاً، وعن علماء القيروان هل أخذوا عن مالك مذهبه في الفقه أو أخذوا مذهبه في الفقه والعقيدة، وإذا كانوا أخذوا عنه هذا وذاك فهل كان مالك أشعرياً؟ ـ وما ظهرت الأشعرية إلا من بعده ـ ولماذا اشتهر عن المالكية في إفريقية دورهم في نشر مذهبه الفقهي ولم يشتهر ـ كذلك ـ دورهم في نشر مذهبه العقدي.

---

(١) القيروان عبر الندوات الإسلامية، ص١٠.

ولما تلقيت دعوة الأستاذ الفاضل الدكتور بولبابة حسين - وفقه الله - للمشاركة في الملتقى العلمي الخامس وموضوعه: «دور علماء القيروان في خدمة المذهب المالكي والذود عنه ونشره» رأيتها مناسبة أن أبحث عن الإجابة عن هذه الأسئلة خاصة الأخير منها، وأكشف جهود علماء القيروان - رحمهم الله تعالى - في الذود عن مذهب مالك ونشره ليس في الفقه فحسب بل في العقيدة أيضاً، وأنهم بذلوا جهدهم بل وحياتهم لذلك ثم تبين لي أن إستيفاء هذا الموضوع طويل وأنه يحتاج إلى جهد كبير وعلم واسع لا أملكه فاقتصرت منه على بعضه وأخذت من مسائل الاعتقاد مسألة خلق القرآن وموقف علماء القيروان منها ودورهم في الذب عن عقيدة مالك في ذلك.

والله المستعان..

المؤلف

أ. د فهد بن عبد الرحمن بن سليمان الرومي



معنى المذهب

لا أريد أن أقف كثيراً عند معنى المذهب في اللغة ولا حتى في الاصطلاح ويكفي أن نعرف أن المذهب في اللغة هو الطريق، ويقال: ذهب القوم مذاهب شتى، أي ساروا في طرائق مختلفة، وسار عند الفقهاء حقيقة عرفية فيما ذهب إليه إمام من الأئمة في الأحكام الاجتهادية استنتاجاً واستنباطاً..

والحق أن هذا وذاك لا يهمنا هنا كثيراً وإنما الذي يهمنا ما كان يشمله ـ على الأقل ـ في أذهان أئمة المذاهب وتلاميذهم، هل كانوا يقصرون المذهب على تلقي مسائل الفروع أم كانوا يتلقون منهم الأصول كما يتلقون الفروع.

وقد أشار الدكتور عمر الجيدي إلى ذلك بعد أن ذكر تعريف المذهب في اللغة والاصطلاح وتعريفه عند المتأخرين فقال: «وهو بهذا المعنى لم يكن موجوداً ولا معروفاً بين المسلمين في عصر الأئمة ـ أصحاب المذاهب ـ فمالك وغيره من أئمة الاجتهاد لم يكونوا يعرفون معنى المذهب[1]، وإنما كانوا ينشرون علم السنة وفقه الصحابة والتابعين ولذا قيل إن نسبة المذهب إلى صاحبه لا يخلو من تسامح، فما كان مالك ولا غيره من أئمة المذاهب يدعون أحداً إلى التمسك بمنهجهم في الاجتهاد ولا كان عندهم منهاج محدد في اجتهادهم إنما

---

(١) يريد بالمعنى الاصطلاحي.

كانوا يتبعون في ذلك منهج مَن سبقهم من علماء التابعين وهؤلاء من الصحابة إلى رسول الله ﷺ[1].

واستدل لذلك بأن: مالك ـ رحمه الله ـ كان يوصي طلابه ومستفتيه بأن ينظروا في كلامه فما وافق الكتاب والسنة أخذوا به كما كان يقول: «ما من أحد إلا وهو مأخوذ من كلامه ومردود عليه إلا رسول الله ﷺ» وروى الحاكم والبيهقي عن الشافعي رضي الله عنه أنه كان يقول: «إذا صح الحديث فهو مذهبي» وفي رواية: «إذا رأيتم كلامي يخالف الحديث فاعملوا بالحديث واضربوا بكلامي الحائط»، وقال يوماً للمزني: «يا إبراهيم لا تقلدني في كل ما أقول، وانظر في ذلك لنفسك فهو دين»، وكان أحمد بن حنبل عليه الرحمة يقول: «ليس لأحد مع الله ورسوله كلام»، وقال أيضاً لرجل: لا تقلدني، ولا تقلدن مالكاً، ولا الأوزاعي، ولا النخعي، ولا غيرهم وخذ الأحكام من حيث أخذوا»[2].

وهو بهذا يريد أن يقرر ـ بعيداً عن مسألة وجوب التقليد أو عدمه ـ أن أئمة المذاهب لم يحددوا معنى المذهب كما حدده المتأخرون بل ساروا في ذلك على منهج مَن سبقهم من الصحابة والتابعين، وصرح بأن تحديد معنى المذهب «لم يحدث إلا في القرن الرابع الهجري عندما دعت الظروف إلى هذا النوع من الالتزام بمنهاج معين في الفقه والتشريع ولم تكن المذاهب قد استقرت على رأس المائة الثالثة رغم ما قيل من أنه في هذا التاريخ كان قد بطل نحو من خمسمائة مذهب»[3].

---

(١) مباحث في المذهب المالكي بالمغرب: د. عمر الجيدي، ص٩.

(٢) المرجع السابق: ص١٠.

(٣) المرجع السابق: ص٩.

وبغض النظر عن تاريخ تحديد معنى المذهب فإن الحد الفاصل الذي لا مراء فيه ـ كما أعتقد ـ أن ننظر في أقوال تلاميذ كل إمام من أئمة المذهب وننظر المدى الذي يذهبون إليه في تلقي العلوم عن أئمتهم.

ولا أجد فيما أعلم أحداً من تلاميذ الأئمة خالف إمامه في مسألة من مسائل العقيدة بل نجدهم يلتزمون مسائل العقيدة أكثر مما يلتزمون مسائل الفقه، وإن خالف أحدهم مذهب إمامه في مسألة عقدية فارقة واعتزل عنه كما اعتزل واصل عن الحسن وغيره، ونجد عبارة أقرب ما تكون للصراحة في ذلك لأبي الحسن الكرجي الشافعي في كتابه: «الفصول في الأصول عن الأئمة المقتدى بهم: «إن في النقل عن هؤلاء إلزاماً للحجة على كل مَن ينتحل مذهب إمام يخالفه في العقيدة فإن أحدهما[1] لا محالة يضلل صاحبه، أو يبدعه، أو يكفره فانتحال مذهبه ـ مع مخالفته له في العقيدة ـ مستنكر ـ والله ـ شرعاً وطبعاً، فمن قال: أنا شافعي الشرع أشعري الاعتقاد، قلنا له: هذا من الأضداد، لا، بل من الارتداد، إذ لم يكن الشافعي أشعري الاعتقاد. ومَن قال: أنا حنبلي في الفروع، معتزلي في الأصول، قلنا: قد ضللت إذاً عن سواء السبيل فيما تزعمه، إذ لم يكن أحمد معتزلي الدين والاجتهاد ـ ثم قال: ـ وقد أفتتن ـ أيضاً ـ خلق من المالكية بمذاهب الأشعرية وهذه ـ والله ـ سبة وعار وفلتة تعود بالوبال والنكال وسوء الدار على منتحل مذاهب هؤلاء الأئمة الكبار»[2].

وقد نقلت نص العبارة مع ما فيها من حدة ليظهر لنا مدى

---

(١) يريد (المنتحل) و(إمامه).

(٢) مجموع الفتاوي: ابن تيمية، ج٤، ص١٧٦ ـ ١٧٧.

الارتباط عندهم بين الفروع والأصول، ولعل هذا يحدد لنا معنى المذهب عند تلاميذ الأئمة وأنه أخذ الفروع والأصول وليس قصراً على المسائل الاجتهادية كما قرره بعض المتأخرين.

وقد صرح بعض المعاصرين بذلك حيث قال الدكتور عبد المجيد النجار: «لم يكن سائداً بإفريقيا منذ سحنون فقه مالك فحسب بل ومذهبه في العقيدة أيضاً، ذلك الذي يقوم على الإيمان بما جاءت به النصوص متجنباً التأويل والجدل الذي نستعمل فيه الحجة العقلية»[1].

وهذا الدكتور عمر الجيدي يذكر بعض تلاميذ مالك ثم يقول: «... وهؤلاء كلهم تتلمذوا لمالك، وأخذوا عنه مباشرة، فلما عادوا إلى بلدانهم أخذوا ينشرون علمه وفقهه بين الناس، وذلك بالتدريس، والفتيا، والقضاء، والشورى، وغيرها من وظائف الدولة، فالتزموا مذهبه في الفروع والأصول والسلوك»[2].

وإذا أضفنا إلى ما ذكرنا وما لم نذكر قول الفيروز آبادي في قاموسه أن المذهب: «المتوضأ، والمعتقد الذي يذهب إليه»[3] ظهر لنا أن المذهب أعم من قصره على مسائل الفروع.

---

(١) القيروان عبد الندوات الإسلامية: ص١٠.

(٢) مباحث في المذهب المالكي: د. عمر الجيدي، ص١٦.

(٣) القاموس المحيط: الفيروز آبادي، مادة (ذهب)، ص١١١.

المذهب المالكي في إفريقيا

لا تختلف القيروان عن غيرها من البلدان الإسلامية بعد فتح المسلمين لها من حيث تعليم أمور الدين حيث ينتشر فيها الصحابة والتابعون ويعلمونهم السنن والآثار من غير التزام بمذهب معين إلى أن توضع بذرة أحد المذاهب فتنمو وتكبر أو تذبل وتموت وهكذا كان شأن القيروان إلى أن نما فيها مذهبا أبي حنيفة والأوزاعي وهما أول المذاهب دخولاً إلى القيروان وفي هذا يقول المقريزي: «وكانت أفريقيا الغالب عليها السنن والآثار إلى أن قدم عبد الله بن فروخ أبو محمد الفارسي بمذهب أبي حنيفة»[1].

وما لبث أهل القيروان أن أخذوا بمذهب مالك رحمه الله تعالى وكانت له الغلبة إلى يومنا هذا.

وقد اختلف الناس في السبب الذي إنتقل به أهل إفريقيا عن مذهب أبي حنيفة رحمه الله تعالى إلى مذهب مالك رحمه الله تعالى فذهب ابن خلكان وابن العماد وغيرهم إلى أن المعز بن باديس الصنهاجي هو الذي حمل جميع أهل المغرب على التمسك بمذهب الإمام مالك رضي الله عنه[2]، كما قال بهذا أيضاً ابن حزم رحمه الله تعالى الذي قرر أن مذهبين انتشرا في بدء أمرهما بالرياسة والسلطان

---

(١) المواعظ والاعتبار: المقريزي، ج٢، ص٣٣٣.

(٢) وفيات الأعيان، ج٥، ص٢٣٤ ـ وشذرات الذهب: ابن العماد، ج٣، ص٢٩٤ ـ والاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى: للسلاوي، ج١، ص١٣٧ ـ ١٣٨.

مذهب أبي حنيفة ومذهب مالك بالأندلس[1]، وأيد ذلك من المعاصرين محمد أبو زهرة[2].

ولخص ابن خلدون الأسباب التي دعت أهل المغرب والأندلس إلى الأخذ بمذهب مالك فقال: «وأما مالك ـ رحمه الله تعالى ـ فاختص بمذهبه أهل المغرب والأندلس، وإن كان يوجد في غيرهم، إلا أنهم لم يقلدوا غيره إلا في القليل لما أن رحلتهم كانت غالباً إلى الحجاز وهو منتهي سفرهم، والمدينة يومئذ دار العلم ومنها خرج إلى العراق ولم يكن العراق في طريقهم فاقتصروا عن الأخذ عن علماء المدينة وشيخهم يومئذ وإمامهم مالك وشيوخه من قبله وتلميذه من بعده، فرجع إليه أهل المغرب والأندلس وقلدوه دون غيره ممن لم تصل إليهم طريقته»[3] وإلى هنا يبدو كلام ابن خلدون معقولاً ومنطقياً ولا نوافقة على قوله بعد: «وأيضاً فالبداوة كانت غالبة على أهل المغرب والأندلس، ولم يكونوا يعانون الحضارة التي لأهل العراق فكانوا إلى أهل الحجاز أميل لمناسبة البداوة، ولهذا لم يزل المذهب المالكي غضاً عندهم ولم يأخذه تنقيح الحضارة وتهذيبها كما وقع في غيره من المذاهب»[3].

وقد رد الدكتور السيد محمد أبو العزم داود في كتابه القيم: (الأثر السياسي والحضاري للمالكية في شمال إفريقيا حتى قيام دولة المرابطين) على القول بأنه انتشر بقوة السلطان بقوله: «واعتقد أن هذا السبب إن صح على المذهب الحنفي بالمشرق وعلى المالكي بالأندلس فلا يمكن أن ينطبق على المالكي بإفريقية لأن السلطة في إفريقيا لم

---

(١) نفح الطيب: المقري، ج٢، ص٢١٨.

(٢) مالك: محمد أبو زهرة، ص٣٦٦ ـ ٣٦٧.

(٣) مقدمة ابن خلدون: ص٤٤٩.

تؤيد هذا المذهب مطلقاً بل عارضته وعادته، ففي زمن بني العباس ونوابهم من الأغالبة كان تأييد الدولة للأحناف وفي عهد الفاطميين كان الولاء للمذهب الشيعي بل إن كلا الفريقين (الأغالبة والشيعة) كان يبغض المالكيين ويعاديهم... ويؤكد هذا أن عبارة ابن حزم اقتصرت على الأندلس فقط دون أفريقية أو المغرب»[١] ثم ذكر أن من أهم الأسباب رحلة طلاب العلم من أهل أفريقية والمغرب إلى المدينة - يعني كما ذكر ابن خلدون - ثم ضعف السبب الثاني الذي ذكره ابن خلدون وهو المشاكلة في البداوة ثم قرر أخيراً أن السبب الحقيقي هو وجود ثورات الخوارج التي لا تنقطع، والتمرد السياسي، والفرق المبتدعة، والضلالات المنتشرة التي جعلت الأفارقة يعتقدون أن مذهب مالك رضي الله عنه هو الأمن من كل زيغ والسلام من كل اتجاه[٢].

والذي أميل إليه السبب الأول من السببين الذين ذكرهما ابن خلدون في مقدمته كما نقلته عنه آنفاً وهو ما رجحه أيضاً الدكتور السيد محمد أبو العزم داود، وإن خالفته الرأي الأخير له.

وإذا كان السبب الذي رجحته لانتشار مذهب مالك رحمه الله تعالى في المغرب هو رحلة القيروانيين إلى المدينة وإلى مالك خاصة فإن التاريخ يثبت لنا أسماء عدد كبير من علماء القيروان الذين تلقوا العلم عن مالك رحمه الله تعالى فمنهم عبد الله بن فروخ (ت١٧٦) قال عنه مالك: هذا فقيه بلده[٣]، وعلي بن زياد (ت١٨٣) الذي رحل إلى الإمام مالك رحمه الله تعالى بعد فراغه من الموطأ فسمعه منه ثم عاد به إلى أفريقيا فأقبل عليه الناس يسمعونه منه[٤] وقال عنه أبو سعيد

---

(١) الأثر السياسي والحضاري: د. السيد محمد أبو العزم داود: ص٦٥.

(٢) المرجع السابق: ص٦٦ - ٦٧.

(٣) رياض النفوس: ج١، ص٢٠٢.

(٤) مدرسة الحديث في القيروان: د. حسين شواط، ج١، ص٢٠٥.

هو أول مَن أدخل الموطأ وجامع سفيان المغرب وفسر لهم قول مالك ولم يكونوا يعرفونه»[1] ومنهم البهلول بن راشد (ت١٨٤) الذي قال عنه مالك رحمه الله تعالى حين رآه (هذا عابد بلده)[2] ومنهم عبد الله بن غانم (ت١٩٠) وكان مالك يقربه حتى غار منه أصحابه ويقولون: (شغلة المغربي عنا)[3] ومنهم أسد بن الفرات (ت١٧٢) الذي قال له مالك حين أكثر عليه السؤال: «هذه سلسلة بنت سليسلة إذا كان كذا وكذا كان كذا وكذا إن أردت هذا فعليك بالعراق»[4] ومنهم عبد الله بن أبي حسان اليحصبي (ت٢٢٧) الذي قال عنه ابن وهب: «ما رأيت مالكاً أميل منه إلى أحد كميله إلى ابن أبي حسان»[5] وغير هؤلاء كثير حتى قال محمد بن الحارث: أنه رحل منها أكثر من ثلاثين رجلاً كلهم لقي مالكاً وسمع منه[6] بل أوصلهم الدكتور حسين شواط إلى أربعة وأربعين راوياً[7]، فإذا كان هؤلاء كلهم رحلوا إلى الإمام مالك رحمه الله تعالى وسمعوا منه فلا عجب أن يغلب مذهبه على بلد كالقيروان.

ورحل عدد أكبر إلى المدينة بعد وفاة الإمام مالك رحمه الله تعالى وما منع بعضهم عن الرحلة إليه إلا الفقر حتى قال الإمام سحنون ـ رحمه الله تعالى ـ: (لحى الله الفقر فلولاه لأدركت مالكاً)[8] فزادت الدواعي لغلبة مذهب مالك رحمه الله تعالى.

---

(١) تراجم أغلبية: السبتي، ص٢٢.
(٢) رياض النفوس: ج١، ص٢٠٢.
(٣) تراجم أغلبية، ص١٠.
(٤) رياض النفوس: ج١، ص٢٥٧.
(٥) رياض النفوس: ج١، ص٢٨٦.
(٦) تراجم أغلبية: ص٩٣.
(٧) محاضرات ملتقى القيروان مركز علمي مالكي حتى القرن الخامس للهجرة بحث (صلة القيروانيين بالمدينة المنورة): د. حسين شواط، ص٤١٦.
(٨) تراجم أغلبية: ص٨٧ ـ ٨٨.

مذهب مالك
في الفروع والأصول

من المعلوم قطعاً أن أئمة المذاهب الإسلامية الأربعة (أبو حنيفة ومالك والشافعي وأحمد) رحمهم الله تعالى ـ متفقون في الأصول مختلفون في الفروع فهم جميعاً في الأصول على مذهب السلف مذهب أهل السنة والجماعة.

وقد استدل أحد الباحثين على اتفاق الأئمة في مسائل أصول الدين أن هذه العقيدة ـ يقصد القيروانية لابن أبي زيد رحمه الله تعالى ـ هي نفس ما قرره الطحاوي عن أبي حنيفة وصاحبيه اللهم إلا ما ورد في مسألة (مسمى الإيمان) والتي خالف فيها أبو حنيفة الأئمة الثلاثة والحق معهم ومع ذلك فقد قال ابن أبي العز ـ شارح الطحاوية ـ أن الخلاف لفظي فقط[١].

ولسنا هنا في مقام عرض نصوص الإمام مالك رحمه الله تعالى في العقيدة فهي أشهر من أن تذكر هنا ولكني أذكر بعضها للتذكرة ولإثبات ما أقول فقد قال عبد الله بن نافع قال مالك بن أنس: الله في السماء، وعلمه في كل مكان لا يخلو منه شيء[٢].

---

(١) شرح القيروانية: د. محمد بن عبد الرحمن الخيمس، ص٦.

(٢) السنة: عبد الله بن أحمد بن حنبل، ج١، ١٠٧، والعلو: للذهبي، ص١٣٨، والشريعة للآجري: ص٢٤٠، واجتماع الجيوش الإسلامية: ابن القيم، ص١٤١، والفواكه العذاب: ص١٣٦ وإثبات صفة العلو: ابن قدامة ص١٦٦.

وروى أبو الشيخ الأصبهاني، وأبو بكر البيهقي عن يحيى بن يحيى قال: كنا عند مالك بن أنس، فجاء رجل فقال: يا أبا عبد الله ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾[1] كيف استوى؟ فأطرق مالك برأسه حتى علاه الرُّحضاء[2] ثم قال: الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، وما أراك إلا مبتدعاً، فأمر به أن يخرج[3] وروي مثله عن شيخه ربيعة رحمه الله تعالى. قال الذهبي بعد ما ذكر كلام ربيعة ومالك: «هذا قول أهل السنة قاطبة»[4].

وفي قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾[5]، قال ابن القاسم: قال مالك: لا يحد ولا يشبه[6] «قال ابن العربي: وهذه غاية في التوحيد لم يسبق إليها مالكاً أحد»[6] قال ابن وهب سمعت مالكاً يقول: من قرأ «يد الله» وأشار إلى يده وقرأ[7] (عين الله) وأشار إلى ذلك العضو منه يقطع، تغليظاً عليه في تقديس الله وتنزيهه عما أشبه إليه، وشبهه بنفسه فتعدم نفسه وجارحته التي شبهها بالله[6].

وقيل لمالك رحمه الله تعالى: «يا أبا عبد الله ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾[8] ينظرون إلى الله قال: نعم بأعينهم

---

(١) سورة طه: الآية ٥.

(٢) أي العرق.

(٣) شرح أصول الاعتقاد: ص٦٦٤، والرد على الجهمية: الدارمي، ص٢٧، والعلو: ص١٣٦ ـ ١٣٧، واجتماع الجيوش الإسلامية: ص١٤١، وفتاوى ابن تيمية: ج٥، ص٣٦٥، وإثبات صفة العلو: ابن قدامة، ص١٧٢ ـ ١٧٣، والفواكه العذاب: ص١٣٧.

(٤) مختصر العلو للذهبي: الألباني، ص١٤١ ـ ١٤٢.

(٥) سورة المائدة: الآية ٦٤.

(٦) الإمام مالك مفسراً: حميد لحمر، ص١٨٢.

(٧) ليس في المصحف لفظ (عين الله) ولعله يريد المعنى.

(٨) سورة القيامة: الآيتين ٢٢ ـ ٢٣.

هاتين[١] وفي قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾[٢] قال مكي قال مالك رحمه الله: في هذا دليل على أن ثمَّ قوم لا يحجبون عن الله وينظرون إليه[٣] وقال القرطبي: قال مالك بن أنس: في هذه الآية لما حجب أعداءه فلم يروه تجلى لأوليائه حتى رأوه[٤].

وقال القاضي عياض قال غير واحد سمعت مالكاً يقول: الإيمان قول وعمل يزيد وينقص وبعضه أفضل من بعض قال: والله في السماء وعلمه في كل مكان[٥].

وسأل موسى الصمادحي يحيى بن سلام فقال: يا أبا زكريا ما أدركت الناس يقولون في الإيمان؟ فقال: أدركت مالكاً وسفيان الثوري وغيرهم يقولون: الإيمان قول وعمل..[٦].

وروى ابن عبد البر عن الوليد بن مسلم قال: سألت الأوزاعي وسفيان الثوري ومالك بن أنس والليث بن سعد عن هذه الأحاديث التي جاءت في الصفات فقال: أمرُّوها كما جاءت بلا كيف[٧].

قال الشيخ حمد آل معمر بعد النص السابق عن هؤلاء الأربعة إنهم أئمة الدين في عصر تابعي التابعين فمالك إمام الحجاز، والأوزاعي إمام أهل الشام، والليث إمام أهل مصر، وسفيان الثوري إمام أهل العراق[٨].

---

(١) ترتيب المدارك: للقاضي عياض، ج٢، ص٤٢.
(٢) سورة المطففين: الآية ١٥.
(٣) الإمام مالك مفسراً: ص٤١١.
(٤) جامع أحكام القرآن: القرطبي، ج١٩، ص٢٦١.
(٥) ترتيب المدارك: القاضي عياض، ج٢، ص٤٢ ـ ٤٣.
(٦) رياض النفوس: ج١، ص١٩١.
(٧) التمهيد: لابن عبد البر، ج ٧، ص١٤٩ و١٥٨.
(٨) الفواكه العذاب في معتقد الشيخ محمد عبد الوهاب: الشيخ حمد آل معمر، ص١١٦.

وروى الذهبي عن ميمون بن يحيى البكري قال: قال مالك: مَن قال: القرآن مخلوق يستتاب فإن تاب وإلا ضُربت عنقه[١].

وقال الإمام الحافظ أبو عيس الترمذي بعد أن روى حديث أبي هريرة: «إن الله يقبل الصدقة ويأخذها بيمينه»[٢] وقد قال غير واحد من أهل العلم في هذا الحديث: وما يشبه هذا من الروايات من الصفات ونزول الرب تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا قالوا: قد تثبُت الروايات في هذا ويؤمن بها ولا يتوهم ولا يقال: كيف؟ هكذا روي عن مالك وسفيان ابن عيينة وعبد الله بن المبارك أنهم قالوا: في هذه الأحاديث أمرُّوها بلا كيف وهكذا قول أهل العلم من أهل السنة والجماعة، وأما الجهمية فأنكرت هذه الروايات وقالوا: هذا تشبيه وقد ذكر الله عز وجل في غير موضع من كتابه: اليد والسمع والبصر فتأولت الجهمية هذه الآيات ففسروها على غير ما فسر أهل العلم، وقالوا: إن الله لم يخلق آدم بيده وقالوا: إن معنى اليد ها هنا القوة[٣].

وقال الإمام أبو بكر محمد بن موهب المالكي في شرح رسالة ابن أبي زيد لما ذكر قوله تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ . . .﴾[٤] قال أهل التأويل العالمون بلغة العرب: يريد فوقها وهو قول مالك[٥].

وقال الحافظ أبو النصر السجزي في كتاب الإبانة له: وأئمتنا

---

(١) مختصر العلو للذهبي: ص١٤٣، وانظر الشفا: عياض، ج٢، ص٢٣٨، وشرح الشفا: ج٢، ص٤٩٧.

(٢) سنن الترمذي: ج٣، ص٥٠ حديث ٦٦٢ في الزكاة.

(٣) سنن الترمذي: ج٣، ص٥٠ ـ ٥١.

(٤) سورة الملك: الآية ١٦.

(٥) العلو: الذهبي، ص٢٦٤، واجتماع الجيوش الإسلامية: ص١٨٨.

كالثوري ومالك، والحمّادين، وابن عيينة، وابن المبارك، والفضيل، وأحمد، وإسحاق، متفقون على أن الله فوق العرش بذاته، وأن علمه بكل مكان وكذلك أطلقها ابن عبد البر وكذا عبارة شيخ الإسلام أبي إسماعيل الأنصاري فإنه قال في أخبار شتى: إن الله في السماء السابعة على العرش بنفسه وكذا قال أبو الحسن الكرجي الشافعي في تلك القصيدة:

عقائدهم أن الإله بذاته على عرشه مع علمه بالغوائب[1]

وعلى هذه القصيدة مكتوب بخط العلامة تقي الدين ابن الصلاح: هذه عقيدة أهل السنة وأصحاب الحديث.

وروي عن الإمام مالك رحمه الله تعالى أنه قال: «إياكم والبدع، قيل له: وما البدع؟ قال: أهل البدع الذين يتكلمون في أسماء الله وصفاته وكلامه ولا يسكتون عما سكت عنه الصحابة والتابعون»[2].

وكان الإمام مالك رحمه الله تعالى يوجه تلاميذه للرد على أهل البدع والطريقة أو الطرق السليمة في ذلك فقد كتب له ابن فروخ يخبره: «أن بلدنا كثير البدع وأنه ألَّفَ لهم كلاماً في الرد عليهم فكتب إليه مالك يقول له: إن ظننت ذلك بنفسك خفت أن تزل وتهلك، لا يرد عليهم إلا من كان ضابطاً عارفاً بما يقول لهم، لا يقدرون أن يعرجوا عليه فهذا لابأس به، وأما غير ذلك فإني أخاف أن يكلمهم فيخطيء فيمضوا على خطئه أو يظفروا منه بشيء فيطغوا ويزدادوا تمادياً في ذلك»[3].

---

(١) أورد هذا البيت مع غيره السبكي في طبقات الشافعية، ج٦، ص١٤١، وهو من قصيدة تسمى (عروس القصائد في شموس العقائد) وهي تزيد على مئتي بيت انظر العلو: للذهبي ص٢٦٢ ـ ٢٦٣.

(٢) مدرسة الحديث في القيروان: حسن شواط، ج١، ص٥٤، ٩٢ ـ ٩٤.

(٣) تراجم أغلبية: ص٤٨.

دور علماء القيروان في الدفاع عن مذهب مالك في الفروع والأصول

غلب على علماء القيروان الجانب الفقهي بلا شك ومع هذا فقد تصدوا للرد على أهل البدع والأهواء والمذاهب الزائغة إلا أن النصوص الواردة عنهم في ذلك تبقى الأقل[(١)] وقد علل الدكتور الهمادي ذلك بقوله: «والجدير بالذكر أن جل تلك القضايا التي تمحض لها أهل السنة لم تصل إلينا إلى وقتنا الحاضر سوى القليل منها التي حفظتها كتب التراجم والطبقات ويرجع ذلك إلى ضياع الآثار التي دونها أصحابها من متكلمي السنة القيروانيين، فما تبقى منها لا يفي بالغرض ولا يعطي صورة واضحة عنها، لكن بالرغم من ذلك يمكن استشفافها واستنتاجها من خلال العناوين المتوفرة لدينا بحيث لا يصعب تصورها وإدراك محتوياتها»[(٢)].

ومع هذا فإن النصوص التي وصلت إلينا كافية لترسم المنهج العقدي الذي كان عليه تلاميذ الإمام ملك رحمه الله تعالى.

---

(١) انظر بحث دور القيروان في تلقي الأشعرية ونشرها: د. عبد المجيد النجار، ص٥ ـ ٦.

(٢) محمد بن سحنون المتكلم السني: د. عمار الهمادي، ضمن محاضرات ملتقى «القيروان مركز علمي مالكي بين المشرق والمغرب حتى نهاية القرن الخامس للهجرة»، ص٤٦٠.

فهذا أسد بن الفرات (ت١٧٢) - رحمه الله تعالى - قال عنه المالكي: «كان مشهوراً بالفضل والدين ودينه ومذهبه هو السنة...» وكان يقول: «إن الله على العرش استوى بلا كيف، ويرى في الأخرى كيف يشاء لا كما يشاء العباد» ويكفر مَن يمنع من ذلك، وكان - رحمه الله تعالى - يكفر بشراً المريسي ويتكلم فيه بأقبح الكلام.. ولما قريء عند أسد قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾[1] وكان سليمان بن حفص جالساً بين يديه فقال له: يا أبا عبد الله: من الانتظار، وكان إلى جانب أسد نعل غليظ فأخذ أسد بتلابيبه وكان أيّداً، وأخذه بيده الأخرى نعله، وقال: إي والله يا زنديق، لتقولنها أو لأبيضن بها عينيك! فقال: نعم ننظره[2].

وهذا عبد الله بن فروخ (ت١٧٦) - رحمه الله تعالى - سأله حيوس بن طارق فقال له: ما تقول في المعتزلة؟ فقال له: وما سؤالك عن المعتزلة؟ فعلى المعتزلة لعنة الله قبل يوم الدين، وفي يوم الدين، وبعد يوم الدين، وفي طول دهر الداهرين، فقال له حيوس بن طارق: لا تفعل فإن فيهم رجالاً صالحين، فقال: ويحك! ما أحسبك تخاف في نفسك في قعود، ولا في قيام من الناس، وهل فيهم رجل صالح؟![3].

ولما قدمت جنازة ابن صخر المعتزلي قالوا لابن غانم الجنازة فقال: كل حي ميت قدموا دابتي ولم يصل عليه فقيل لابن فروخ الجنازة فقال: مثل ذلك وقام ولم يصل عليه، وقيل للبهلول الجنازة فقال مثل ذلك[4].

---

(١) سورة القيامة: الآيتان ٢٢ - ٢٣.

(٢) رياض النفوس: المالكي، ج١، ص٢٦٤ - ٢٦٥ باختصار.

(٣) المرجع السابق: ج١، ص١٨٦.

(٤) رياض النفوس: ج١، ص١٨٦.

وكان علي بن زياد العبسي (ت١٨٣) ـ رحمه الله تعالى ـ يرد على الجبرية ومر بأبي محرز وعنده الطلبة فقال له: يا أبا محرز: ما الذي أراد الله سبحانه وتعالى من عباده؟ قال: الطاعة. فقال له: وما الذي أراده إبليس منهم؟ فقال له: المعصية. فقال له: أي الإرادتين غلبت؟ فقال له أبو محرز: أقلني أقالك الله تعالى، فقال له علي: والله لا أقيلك، حتى تتوب عن بدعتك، ثم التفت علي بن زياد إلى الطلبة فقال: شاهدت الوجوه! أفمن هذا تسمعون[1].

وقال أبو يحيى بن محمد بن يحيى بن السلام.. كان جدي يقول: الإيمان قول وعمل ونية وكان يحيى ثقة صدوقاً لا يقل عن جده إلا الحق[2].

وقال عون بن يوسف: قلت ليحيى بن السلام: إن الناس يرمونك بالإرجاء، قال عون: فأخذ يحيى لحيته بيده وقال: أحرق الله هذه اللحية بالنار إن كنت دنت الله عز وجل قط بالإرجاء[2].

وحدث عون بن يوسف قال: كنت عند عبد الله بن وهب وهو يُقرأ عليه فمر حديث ليحيى بن السلام فقال: امحه فقال عون فقلت له: لم تمحوه، أصلحك الله؟ فقال: بلغني أنه يقول بالإرجاء، فقلت له: فأنا كشفته عن ذلك، فقال لي: أنت! فقلت له: نعم، فقال لي: فما قال لك؟ قال: قلت له: فقال: معاذ الله أن يكون ذلك رأيي أو أدين الله به، ولكن أحاديث رويتها عن رجال يقولون: الإيمان قول، وآخرين يقولون: الإيمان قول وعمل، فحدثنا بما سمعنا منهم، فقال لي ابن وهب: فرجت عني فرج الله عنك. قال عون: فلما قدمت

---

(١) المرجع السابق: ج١، ص٢٣٦.

(٢) المرجع السابق: ج١، ص١٩٠.

القيروان ـ وكان يحيى باقياً بعدُ ـ أتاني فسلم عليَّ وقال لي: يا أبا محمد قد بلغني محضرك فجزاك الله خيراً، والله ما قلتَ إلا حقاً، وما دنتُ الله به قط[1].

وقال سليمان بن خلاد قلت لابن أبي حسان (ت٢٢٧) ـ رحمه الله تعالى ـ: أرأيت هذا الذي يقول الناس في أبي بكر وعلي؟ يريد التفضيل بينهم، فرفع يده فضربني الصدر ضربة واحدة أوجعتني، ثم قال: ليس هذا دين قريش ولا دين العرب، هذا دين أهل قم قرية من قرى خراسان، ثم قال: والله ما يخفي علينا نحن مَن يستحق الولاية بعد والينا، ولا مَن يستحق القضاء بعد قاضينا، فكيف يخفى على أصحاب محمد ﷺ مَن يستحق الأمر بعد نبيهم[2].

وأخبر يحيى بن عون قال: دخلت مع سحنون على ابن القصار وهو مريض وكان من أصحابه، وأصابه في علته قلق، فقال له: يا ابن القصار ما هذا القلق الذي أنت فيه؟ قال: الموت والقدوم على الله عز وجل، فقال له سحنون: ألست مصدقاً بالرسل فأولهم وآخرهم والبعث والحساب والجنة والنار؟ وأن أفضل هذه الأمة بعد نبيها ﷺ أبو بكر ثم عمر؟ وأن القرآن كلام الله غير مخلوق؟ وأن الله تعالى يُرى يوم القيامة؟ وأنه على العرش استوى؟ ولا تخرج على الأئمة بالسيف وإن جاروا؟ قال: إي والله الذي لا إله إلا هو، فضرب سحنون بيديه على ضبعيه وقال له: مت إذا شئت، مت إذا شئت، ثم خرج عنه[3].

وكتب الإمام سحنون ـ رحمه الله تعالى ـ إلى عبد الملك بن الماجشون (ت٢١٢) رحمه الله تعالى يذكر له ما حدث عندهم من

---

(١) رياض النفوس: ج١، ص١٩١ ـ ١٩٢.

(٢) المرجع السابق: ج١، ص٢٨٧ ـ ٢٨٨.

(٣) المرجع السابق: ج١، ص٣٦٧ ـ ٣٦٨.

الكلام في التشبيه والقرآن ويسأله الجواب عليه فكتب إليه عبد الملك: من عبد الملك بن الماجشون إلى سحنون بن سعيد سلام عليكم فإني أحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو ـ أما بعد وفقنا الله وإياكم لطاعته، سألت عن مسائل ليست من شأن أهل العلم والعمل بها جهل، فيكفيك من مضي من صدر هذه الأمة أنهم اتبعوا بإحسان ولم يخوضوا في شيء منها، وقد خلص الدين إلى العذراء في خدرها فما قيل لها كيف ولا من أين، فاتبع كما ابتعوا واعلم أنه لعلم الأعظم، لا يشاء الرجل أن يتكلم في شيء من هذا فيكفر، فيهوى في نار جهنم[1].

(١) ترتيب المدارك: ج٣، ص١٤١.

المالكية والأشعرية

جاء في منشور الحكم المستنصر أنه ما سمع أحداً ممن تقلد مذهب مالك قال: بالتشيع أو الإرجاء أو الاعتزال[1] أما الأشعرية: فقد قال السبكي: أنه لم ير مالكياً إلا أشعرياً عقيدة[2] وقد وصف الدكتور عمر الجيدي عبارة السبكي بأنها مجازفة[3] وقد أصاب في ذلك إلا إن كان السبكي يقصد بالرؤية الرؤية البصرية فتكون عبارته خاصة بمن رآهم بعينه من المالكيين أما إطلاق العبارة هكذا على المالكية فغير صواب فمالك ـ رحمه الله تعالى ـ نفسه لم يكن أشعرياً ولم تظهر الأشعرية إلا من بعده ولم يكن أحد من تلاميذه أشعرياً كذلك بل كدت أقول ولا من تلاميذ تلاميذه.

وللدكتور عبد المجيد النجار بحث قيم عنوانه: (دور القيروان في تلقي الأشعرية ونشرها) نشره مركز الدراسات الإسلامية في القيروان وسأكتفي هنا بنقل نصوص متفرقة منه تجلي لنا الأمر في هذا الموضوع.

وإذا كان من أهم فروع الفكر الإسلامي الجانب الفقهي والجانب العقائدي فإن مقارنة بين ما قامت به القيروان في خدمة كل من هذين الجانبين تسفر عن إظهار مدى ذلك الاختلاف والتفاوت بينهما.

فقد كان دور القيروان مهماً جداً وواضحاً كل الوضوح في إنتاج فكر

---

(١) مباحث في المذاهب المالكي بالمغرب: د. عمر الجيدي، ص٢٨.

(٢) معيد النعم ومبيد النقم: السبكي، ص٧٥ عن المرجع السابق ص٢٨.

(٣) مباحث في المذهب المالكي بالمغرب: د. عمر الجيدي، ص٢٨.

فقهي ناضج مكين استطاع أن يرسي المذهب المالكي بأفريقيا وينشره في كامل المغرب إلا أن هذا الدور كان أقل أهمية ووضوحاً في إنتاج فكر عقدي له من النضج والصلابة والثراء ما يستطيع به أن يسيطر في شيء من الحسم على الحياة العقائدية بأفريقيا والمغرب شأن الفكر الفقهي(١).

(قلت): ولهذا صمد المذهب المالكي الفقهي في صراعه مع المذهب الحنفي والظاهري والأوزاعي وغيرها أما المذهب المالكي العقدي فما لبث أن تحول إلى المذهب الأشعري بعد قرون قليلة.

واختلف في ظهور الأشعرية في المغرب فمن المؤرخين مَن حدد تاريخ ظهورها ببداية القرن السادس على يد محمد بن تومرت ومن هؤلاء المقريزي من القدامى والدكتور أحمد محمود صبحي من المحدثين، أما ابن عساكر فقد حدده بمنتصف القرن الرابع على يد بعض تلاميذ الباقلاني (ت٤٠٣) المتأثرين بالأشعرية، وذهب آخرون إلى أن الأشعرية قد انتشرت بأفريقيا أو على الأقل وصلت إليها في حياة مؤسسها نفسه أو بعد وفاته بقليل(٢).

إلا أن الدكتور عبد المجيد علل ظهور الأشعرية ببغداد في بداية القرن الرابع بأنه كان استجابة لضرورة حضارية(٣) في مجال الفكر العقدي لمواجهة الفرق والمذاهب كالمعتزلة وبوادر الحركة الفلسفية المتأثرة بالفلسفة اليونانية والنزاعات الفلسفية المضادة للإسلام من

(١) دور القيروان في تلقي الأشعرية ونشرها: د. عبد المجيد النجار، ص٥ ـ ٦.

(٢) المرجع السابق: ص٦ ـ ٧ مختصراً.

(٣) ترد بعض العبارات غير الصحيحة آثرت عدم التوقف عندها، ومنها اعتقاده أن ظهور الأشعرية كان استجابة لضرورة حضارية وهي دعوى غير صحيحة إذ أن مذهب السلف كاف كل الكفاية لمواجهة كل المذاهب الباطلة قديمها وحديثها، وقد تصدى ابن تيمية رحمه الله تعالى للمذاهب الكلامية والفلسفية ورد عليها رداً مفحماً وهو من أعلام السلف وأهل السنة والجماعة.

اليهودية والمسيحية وأديان فارس الثنوية والمانوية والمزدكية وأديان الهند خاصة البرهمية فكان ظهور الأشعرية ببغداد استجابة لتلك الضرورة، ثم تساءل: هذا في العراق فهل كانت بيئة القيروان في القرن الثالث على ظروف مشابهة تهيئها إلى تقبل هذه الوجهة في بحث العقيدة حيث السائد فيها منذ سحنون فقه مالك ومذهبه في العقيدة الذي يقوم على الإيمان بما جاءت به النصوص متجنباً التأويل والجدل الذي تستعمل فيه الحجة العقلية مع وجود المعتزلة والخوارج والشيعة الذي يفضي إلى قيام حوار فكري عقدي ساخن بلغ ذروته في القرن الثالث وكانت الغلبة في أكثر الأحيان للطرف السني الذي يمثله المعتقدون على طريقة مالك؟ ثم بين أن هذه الطريقة لم تكن مجدية بما هو كاف وخاصة بإزاء الحجاج العقلي الذي كان يمارسه الشيعة(١) والمعتزلة ولذلك فقد اتجه السلف بالقيروان إلى طريقة الجدل العقلي والحجاج المنطقي ونشأت طبقة من المناظرين على رأسهم محمد بن سحنون وأبو عثمان سعيد بن الحداد وكان هذا الحوار العقلي ينقصه عنصر الفلاسفة وعنصر الأديان المعارضة فلا وجود للفلسفة المشائية التي أسسها الكندي والفارابي ولم يتعد الجدل مع أهل الديانات على قلته اليهود والمسيحيين.

إن هذا الوضع الذي كانت عليه القيروان في القرن الثالث يمثل عنصراً مهيئاً لتقبل الأشعرية وليس هناك إشارات واضحة تفيد بوصول الأشعرية إلى القيروان خلال حياة مؤسسها أبي الحسن الأشعري (ت٣٢٤) الذي أعلن تأسيس وجهته في فهم العقيدة حوالي سنة

(١) الشيعة لا يعرفون الاحتجاج العقلي إلا في المسائل العامة المشتركة، أما في عقائدهم الخاصة التي شذوا بها فأبعد ما يكونون عن الحجة العقلية، وإنما يستدلون بالروايات المختلقة.

(٣٠٠) رغم تكهنات بعض الباحثين وجزم آخرين.

ثم أشار الدكتور عبد المجيد إلى أن أول بادرة للأشعرية بالقيروان هي تلك التي حملها أبو إسحاق بن عبد الله القلانسي (٣٥١؟) فقد ذكر عنه أبو القاسم بن محمد البرزلي (٣٤٤) أنه كان من مشايخ الأشعرية.

وأما أبو محمد عبد الله بن أبي زيد القيرواني (ت٣٨٦) فقد ألف رسالته المشهورة على عقيدة مالك لا مذهب الأشاعرة يقول عنها د/ عبد المجيد: إذا ما تفحصنا هذا الجزء وجدناه من الناحية المنهجية ذا صبغة استعراضية لا أثر فيه للاستدلال العقلي كما أن الأفهام العقدية الواردة فيه لا تختلف عما كان مألوفاً عند أهل السلف ولا نلمح في هذا الجزء العقدي من «الرسالة» خصائص الأشعرية وأفهامها العقدية وإنما هو نَفَسُ أهل السلف السابقين ـ ثم قال: ـ فلعل أشعرية ابن أبي زيد ظهرت بأكثر وضوح فيما لم يصلنا من كتبه الكثيرة[(١)(٢)].

ومما يؤيد ما ذهب إليه د.عبد المجيد قول د.محمد زيتون بأن ما ذهب إليه ابن أبي زيد في صفات الأفعال على عكس ما ذهب إليه الأشعري[(٣)] وهو ما ذهب إليه أيضاً د.محمد بن عبد الرحمٰن الخميس في شرحه الميسر للقيروانية.

ولهذا وقع الدكتور عبد المجيد بن حمدة في خطأ حين أورد جملتين لابن أبي زيد هما قوله: (وأنه فوق عرشه المجيد بذاته، وهو بكل مكان بعلمه)[(٤)] فصرف د .بن حمدة الجملة الثانية عن ظاهرها

---

(١) كيف تظهر فيما لم يصلنا من كتبه!!

(٢) المرجع السابق: ص٨ ـ ١٦ باختصار.

(٣) القيروان ودورها في الحضارة الإسلامية: د. محمد زيتون، ص٣٤٩.

(٤) شرح القيروانية: ص١٨.

وفسرها بقوله: (أي أن الله لا يحل بمكان ولا يحده مكان، بينما هو موجود في كل مكان بعلمه).

ثم قال: «قد يظهر في هذا الرأي تناقض مع قوله: (والله فوق العرش بذاته) لكن الفوقية هنا مجازية، وفعلاً انتقد ابن أبي زيد بسبب رأيه هذا واعتبر مجسماً»[1].

ولو أول د. بن حمدة الجملتين على مذهب السلف لما وجد بينهما تعارضاً ولا تناقضاً لكن التناقض حين أول جملة على مذهب الأشاعرة فوجد الأخرى تناقضها ولم يدرك حقيقة الأمر.

ونجد من الذين نسب إليهم دور في إدخال الأشعرية إلى القيروان أبا الحسن علي بن محمد القابسي[2] (ت٤٠٣) إلا أن الدكتور عبد المجيد ضعف هذه النسبة بقوله: على أنه ليس بين أيدينا من آثار القابسي إلا نزر يسير وهو في غير مجال العقيدة بالأصالة مما يجعلنا لا نستطيع تقييم مدى أخذه بالأشعرية تقييماً صحيحاً[3].

وفي أواخر القرن الرابع الهجري وصل إلى القيروان أبو عبد الله الأذري وأبو طاهر البغدادي فنشرا العلم والعقيدة الأشعرية فراجت كتبها بالقيروان.

وكان من أبرز التلاميذ الذين تلقوا الأشعرية في هذا المناخ أبو عمران الفاسي (ت٤٣٠) وتفقه عليه جماعة كثيرة إلا أن تلاميذه منهم مَن غلب عليه الفقه ومنهم مَن تأثر بعلمه في العقيدة وحين بعث عبد الله بن ياسين الجزولي إلى الأمير يحيى بن إبراهيم الصنهاجي

---

(١) المدارس الكلامية بإفريقية: د. عبد المجيد بن حمدة، ص٥٤.

(٢) المدارس الكلامية بإفريقية: د. عبد المجيد بن حمدة، ص١٠.

(٣) دور القيروان في تلقي الأشعرية ونشرها: د. عبد المجيد النجار، ص١٧.

حيث أسسا معاً دولة المرابطين التي حكمت المغرب والأندلس إلا أن هذه الدولة لم تقم على نَفَسٍ أشعري في العقيدة بل قامت على روح فقهية واكتفت في العقيدة بما كان عليه أهل السلف وهو ما يدل على أن مؤسسيها من تلاميذ أبي عمران تأثروا بفقهه لا بمنهجه العقدي.

ولكن تلميذاً آخر هو ابن الصائغ (ت٤٨٦) الذي استقر بالمهدية ونشر بها علمه وأخذه عنه أحد أكبر أعلام المالكية بالمغرب وهو محمد بن علي المازري (ت٥٣٦) الذي يمكن أن يعتبر ممثلاً لمرحلة بوادر نضج الأشعرية وعطائها ومع هذا فقد قال الدكتور عبد المجيد: أن أشعرية المازري تظهر بوضوح ونضج في مؤلفاته ذات الصبغة الفكرية العقائدية.. ولكن هذه المؤلفات ليست بين أيدينا ولعل تحليلها عند العثور عليها يكشف عن أشعرية أفريقيّة فذة اتصف بها المازري.

وبعد هذا الاستعراض لنشأة الأشعرية في القيروان ختم الدكتور عبد المجيد حديثه بقوله: إلا أننا إذا قيمنا هذا الحضور الأشعري بالقيروان خلال المدة التي ذكرناها (من أواسط القرن الرابع إلى أواخر القرن الخامس) فإننا نجده حضوراً متواضعاً في الجملة.. ولم يتعد القبول والتلقي إلى الإسهام الحقيقي في إنضاج الأشعرية وتطويرها بالبحوث المستجدة.. ولذا فإنا لا نلمح في القيروان على حد ما بين أيدينا من المعطيات نشوء أشاعرة أفذاذ مثل أولئك الذين نشأوا بالمشرق ثم ذهب يذكر ما يراه من أسباب ذلك، ثم أشار إلى أن الإسهام المغربي الحقيقي في إنماء الأشعرية ونشرها بالمغرب نهائياً كان على يد رجلين هما أبو بكر بن العربي (ت٥٤٣) ومحمد بن تومرت (ت٥٢٤) حتى انتشرت في المغرب وقامت لها دولة تقوم على أساس العقيدة الأشعرية هي دولة الموحدين وفي هذه المرة جاءت الأشعرية إلى القيروان من المغرب لا من المشرق، ولكن الأشعرية

حين دخلت القيروان دخلتها وهي لم تعد عاصمة العلم والثقافة حيث انتقلت الزعامة إلى مدينة تونس على عهد الموحدين[١].

هذا هو ملخص تاريخ الأشعرية في القيروان ولعله قد غاب عن ذهن بعض الذين كتبوا تاريخها أن السبب في عدم انتشارها سريعاً ليس انعدام الخصوم من الفلاسفة ومواجهة أهل الديانات وإنما هو ـ في نظري ـ التزام علماء القيروان لمذهب مالك وفكره العقدي ولعل هذا يحل المشكلة التي أثارها الباحثون في سر نمو الفكر الفقهي وضعف المباحث العقدية وعدم تطورها شأن المسائل الفقهية ذلكم أن مسألة العقيدة قد حلت وحسمت وقامت على التسليم والتفويض وترك الجدال والمراء، وأما الفقه فهو بحر لا ساحل له تلتطم فيه الأمواج وتمخر عبابه السفن فنما هذا وسكن ذاك إلى أن أتى حين من الدهر غفل فيه جيل من أجيال الخلف عن هذا السر فخاضوا فيما خاض فيه الآخرون.

والمقام لا يسمح هنا أن أستعرض المسائل العقائدية التي التزم فيها سلف القيروانيين مذهب إمامهم مالك بن أنس رحمه الله تعالى وأقصر الأمر على مسألة خلق القرآن وموقف علماء القيروان منها ولا تحسبن الأمر فيها هيناً فهي قضية كبرى في تاريخ الإسلام أزهقت فيها أرواح، وابتلي فيها عدد من علماء المسلمين فثبتوا، وعمت فيها المحنة بلاد المسلمين وكيف لا تكون كذلك وهي في ذات الله وأسمائه وصفاته وليس الخلاف فيها بين أهل السنة والمعتزلة فحسب بل كان هناك رأي ثالث للأشاعرة وعند استعراض المذاهب الثلاثة سنعرف التزام تلاميذ الإمام مالك ـ رحمه الله تعالى ـ في القيروان لمذهبه مذهب أهل السنة والجماعة ومخالفتهم لمن جاء بعدهم من المتكلمين.

---

(١) المرجع السابق: ص١٨ ـ ٢٥ باختصار.

نشأة القول بخلق القرآن

أول مَن أظهر القول بخلق القرآن هو الجعد بن درهم الذي قتله خالد بن عبد الله القسري يوم الأضحى بعد أن خطب خطبة العيد وقال للناس: ضحوا تقبل الله منا ومنكم فإني مضحٍ بالجعد بن درهم[1].

وإن شئت سند هذه البدعة فقد ذكره ابن الأثير في تاريخه حيث قال: وفي سنة أربعين ومائتين توفي القاضي أبو عبد الله أحمد بن دؤاد.. وكان داعية إلى القول بخلق القرآن وغيره من مذاهب المعتزلة وأخذ ذلك عن بشر المريسي وأخذه بشر من الجهم بن صفوان وأخذه جهم من الجعد بن درهم وأخذه الجعد من أبان بن سمعان وأخذه أبان من طالوت ابن أخت لبيد الأعصم وختنه وأخذه طالوت من لبيد بن الأعصم اليهودي الذي سحر الرسول ﷺ وكان لبيد يقول بخلق التوراة، وأول من صنف في ذلك طالوت وكان زنديقاً فأفشى الزندقة[2].

وقد حاول بشر المريسي أن يظهر القول بخلق القرآن في عهد هارون الرشيد رحمه الله تعالى فقد روى أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى عن أحمد الدورقي عن محمد بن نوح قال: سمعن هارون أمير المؤمنين يقول: بلغني أن بشراً المريسي زعم أن القرآن مخلوق ولله علي إن أظفرني به لأقتلنه قتلة ما قتلتها أحداً قط، قال أحمد: فكان

---

(١) الرد على الجهمية: الدارمي، ص١٠٠، والشريعة: الآجري، ص٨٤.

(٢) الكامل في التاريخ: ابن الأثير، ج٥، ص٢٩٤.

بشر متوارياً أيام هارون نحواً من عشرين سنة حتى مات هارون فظهر ودعا إلى الضلالة وكان من المحنة ما كان. قال ابن الجوزي - رحمه الله تعالى - فلما توفي الرشيد كان الأمر كذلك في زمن الأمين فلما ولي المأمون خالطه قوم من المعتزلة فحسنوا له القول بخلق القرآن وكان يتردد في حمل الناس على ذلك، ويراقب بقايا الأشياخ، ثم قوى عزمه على ذلك فحمل الناس عليه[١].

والخلاف يرجع في الأصل إلى الاختلاف في المراد بـ (الكلام) وللناس في ذلك **ثلاثة مذاهب**[٢]:

الأول: مذهب المعتزلة الذين يقولون أن الكلام هو ما انتظم من الحروف المسموعة المتميزة المتواضع على استعمالها في المعاني[٣] وقالوا: إن الإنسان احتاج إلى وضع طريق يعرف به غيره ما في قلبه من فنون الحاجات فاصطلحوا على جعل هذه الأصوات المقطعة بهذه التقطيعات المخصوصة معرفة لما في قلوبهم من الأحوال، أما الله تعالى: فإنه أراد شيئاً أو كره شيئاً خلق هذه الأصوات المخصوصة في جسم من الأجسام لتدل هذه الأصوات على كونه تعالى مريداً لذلك الشيء المعين وهذا هو المراد من كونه تعالى متكلماً والمعتزلة لا يثبتون لله كلاماً بحرف أو بصوت لئلا يثبتوا لله جسماً[٤].

والثاني : للأشاعرة وانقسموا إلى طائفتين:

الطائفة الأولى : قالت: إن الكلام اسم للمعنى المدلول عليه

---

(١) مناقب الإمام أحمد بن حنبل: ابن الجوزي، ص ٤١٦ - ٤١٧.

(٢) استفدت كثيراً في هذا المبحث مما كتبه الدكتور محمد العروسي في كتابه (المسائل المشتركة من ص٢٠٦ - ٢١٧).

(٣) المعتمد: ابن الطيب، ج١، ص١٥.

(٤) خلق القرآن: الفخر الرازي، ص٥٨.

باللفظ وهو اختيار القاضي أبي بكر الذي لخصه الجويني بقوله: «ولا تسمى العبارات كلاماً إلا تجوزاً وتوسعاً»[1] واضطروا إلى تأويل مثل هذه الآيات كقوله: ﴿يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾[2] بأن المراد يفهمون كلام الله، لأن كلام الله ـ عز وجل ـ عندهم معنى قائم بذاته لا يفارقها كالعلم فلا يسمع فالكلام عندهم (المعنى القائم بالنفس) وهو ما يسمى بالكلام النفسي.

وأول مَن أحدث هذا القول في الإسلام أبو محمد عبد الله بن سعيد بن كلاب البصري وتبعه على ذلك أبو الحسن الأشعري، ولهذا كان قدماء الكلابية والأشاعرة يقولون: إن إطلاق الكلام على اللفظ بطريق المجاز وعلى المعنى بطريق الحقيقة فإن العبارات إن سميت كلاماً فهو على التجوز بمثابة تسميتها علوماً من حيث أنها تدل عليها وتشعر بها.

ولما علم المتأخرون من الأشاعرة أن هذا فاسد بالضرورة وأن اسم الكلام يتناول اللفظ حقيقة قالوا بقول جديد وهو قول.

الطائفة الثانية : أن الكلام اسم للمعنى واللفظ بطريق الاشتراك وهذا ما اختاره الجويني[3] وقال الرازي: «إعلم أن لفظة «الكلام» عند المحققين ـ منا ـ تقال بالاشتراك على المعنى القائم بالنفس، وعلى الأصوات المتقطعة المسموعة»[4].

والثالث : هو مذهب السلف والفقهاء والجمهور وهو أن الكلام

---

(١) التلخيص: الجويني ج ١ ص ٢٤٠ ـ ٢٤١.

(٢) سورة البقرة: من الآية ٧٥.

(٣) الإرشاد إلى قواطع الأدلة: الجويني، ص٤٨.

(٤) المحصول: الرازي ج١، ق١، ص٢٣٥.

اسم للفظ والمعنى بطريق العموم، أما الكلام عند الإطلاق فإنه لا يتناول إلا ما كان حديثاً.

والفصل في هذا أن الكلام إما أن يكون مطلقاً أو مقيداً ولا يصح أن يراد به الكلام النفسي إلا إذا كان مقيداً بالنفس أو القلب أو الفؤاد، أما إذا كان مطلقاً فإنه لا يتناول إلا ما كان حديثاً أو قولاً باللفظ وهو مع هذا يشمل اللفظ والمعنى جميعاً فإذا أطلق الكلام دون قيد أو إضافة فإنه يعني به مجموع الأصوات والحروف المسموعة مع المعنى ـ وأما إذا كان مع التقييد فإنه يراد به اللفظ تارة ويراد به المعنى تارة ـ قال ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ وهذا قول السلف وأئمة الفقهاء[١].

والقائلون بأن الكلام هو المعنى النفسي لم يفرعوا عليه مسائل ولا بنوا عليه أصولاً ولم يبطلوا الصلاة بما حدث المصلي به نفسه، ولا اعتبروه في إثبات العقود ولا في فسخها كما قال الزركشي واعلم أنه لم يفرع أئمتنا على الكلام النفسي ولا اعتبروه بمجرده في إثبات العقود ولا في فسخها ولم يوقعوا الطلاق والعتاق بالنية وإن صمم عليها بقلبه[٢].

ولو لم يكن الكلام إلا معنى لم يكن فرق بين تكليم الله لموسى وإيحائه لغيره. ولكان القرآن نصفه كلام الله (وهو المعنى) ونصفه ليس من كلام الله (وهو اللفظ) وهذا خلاف المعلوم بين المسلمين، والقرآن نزل بلسان العرب وهم لا يعرفون في كلامهم أن يقال فلان أمر فلاناً أو نهاه إذا قام بقلبه طلبٌ مجرد عن اللفظ أو الإشارة وأطفال الدنيا كلها يتكلمون نفسياً بل ويعبرون عن كلامهم النفسي بالبكاء عند الجوع وهم في المهد فهل كل أطفال الدنيا يتكلمون وما فائدة تخصيص

---

(١) مجموع الفتاوي: لابن تيمية، ج١٢، ٦٧.

(٢) البحر الميحط: الزركشي، تحقيق د. محمد بن عبد الرزاق الدويش، ج٣، ١٢٢٩.

عيسى عليه السلام بأنه كان يكلم الناس في المهد صبياً.

قال شارح الطحاوية في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ﴾[1].. والآية تدل على فساد قول من قال: إن المسموع عبارة عن كلام الله وليس هو كلام الله، فإنه تعالى قال: ﴿حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ﴾ ولم يقل: (حتى يسمع ما هو عبارة عن كلام الله)، والأصل الحقيقة ومن قال: إن المكتوب في المصاحف عبارة عن كلام الله، أو حكاية كلام الله، وليس فيها كلام الله ـ فقد خالف الكتاب والسنة وسلف الأمة، وكفى بذلك ضلالا[2].

وقال أيضاً: «ويرد قول من قال: بأن الكلام هو المعنى القائم بالنفس: قوله ﷺ: «إن صلاتنا هذه لا يصلح فيها شيء من كلام الناس»[3].. واتفق العلماء على أن المصلي إذا تكلم في الصلاة عامداً لغير مصلحتها بطلت صلاته، واتفقوا كلهم على أن ما يقوم بالقلب من تصديق بأمور دنيوية وطلب ـ لا يبطل الصلاة وإنما يبطلها التكلم بذلك، فعلم اتفاق المسلمين على أن هذا ليس بكلام.

وأيضاً: ففي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله تجاوز لأمتي عما حدثت به أنفسها ما لم تتكلم به أو تعمل به»[4].. ففرق بين حديث النفس وبين الكلام وأخبر أنه لا يؤاخذ به حتى يتكلم به، والمراد: حتى ينطق به اللسان باتفاق العلماء، فعلم أن هذا هو الكلام في اللغة، لأن الشارع إنما خاطبنا بلغة العرب[5].

---

(١) سورة التوبة: الآية٦.

(٢) شرح الطحاوية: ابن أبي العز الحنفي، ص١٩٤.

(٣) صحيح مسلم: ج١، ص٣٨١ ـ ٣٨٢.

(٤) صحيح البخاري: ج٧، ص٢٢٥، وصحيح مسلم: ج١، ص١١٧.

(٥) شرح الطحاوية: ابن أبي العز، ص١٩٩.

وقال أيضاً في قوله تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾[1] أفَتَراه سبحانه وتعالى يشير إلى ما في نفسه أو إلى المتلو المسموع؟! ولا شك أن الإشارة إنما هي إلى هذا المتلو المسموع، إذ ما في ذات الله غير مشار إليه، ولا منزل ولا متلو ولا مسموع.

وقوله: ﴿لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ﴾ أفَتَراه سبحانه يقول: «لا يأتون بمثل ما في نفسي مما لم يسمعوه ولم يعرفوه، وما في نفس الله عز وجل لا حيلة إلى الوصول إليه، ولا إلى الوقوف عليه»[2].

وقال شارحاً قول الطحاوي: (ومن سمعه وقال: إنه كلام البشر فقد كفر): لا شك في تكفير مَن أنكر أن القرآن كلام الله، بل قال: إنه كلام محمد أو غيره من الخلق، ملكاً كان أو بشراً، وأما إذا أقر أنه كلام الله ثم أوّل وحَرَّف ـ فقد وافق قول مَن قال: (إن هذا إلا قول البشر) في بعض ما به كفر وأولئك الذين استزلهم الشيطان[3].

(قلت): وعقلاً وعرفاً لا يصح أن يقال لمن جلس ساكتاً لم ينبس ببنت شفة أنه تكلم لمجرد أنَّ معنى قام في نفسه من غير أن يتكلم به، وقد قالوا: لا ينسب لساكت قول.

وبهذا يظهر بطلان هذا القول بالكتاب والسنة واللغة والعقل والعرف، والله المستعان.

وإذا ظهر لنا الاختلاف في معنى الكلام فسيتبين لنا أيضاً الفرق بين مذهب المعتزلة والأشاعرة والسلف في مسألة خلق القرآن.

---

(١) سورة الإسراء: الآية ٨٨.

(٢) شرح الطحاوية: ص٢٠٠.

(٣) المرجع السابق: ص٢٠١.

فالمعتزلة ينكرون صفة الكلام لله وأنه إذا أراد شيئاً خلق الكلام في شيء من الجمادات بصوت وحرف وإنما نفوا الكلام عن الله لأنه يلزم من ذلك أن تقوم به صفة وهذا يستلزم التجسيم لأن الصفة عرض والعرض لا يقوم إلا بجسم.

والأشاعرة يثبتون صفة الكلام لكنه الكلام النفسي ولهذا قال الغزالي: عن كلام الله ليس بحرف ولا صوت[1] والكلام عند الأشعري معنى قائم بالنفس سوى العبارة[2] ثم قرر هذا الباقلاني في كتبه[3].

وإذا كان الكلام عند الأشاعرة هو الكلام النفسي بلا حرف ولا صوت فكيف ينتقل إلى المخاطب؟ يقول الباقلاني كما لخصه الجويني[4]: «فإذا كلم الله عبداً من عباده يضطره إلى العلم بأن مخاطبه رب العالمين، ويبدع له العلم الضروري بأن ما سمعه كلام الله تعالى».

ومعنى ذلك أن مَن خاطبه الله سبحانه من ملائكته كجبريل أو من رسله كموسى عليه السلام أو يوم القيامة حين يخاطب رب العزة عباده فرداً فرداً للمحاسبة إنما يخلق لهم علماً يعرفون به مراد الله، وإذا كان الكلام لا يزال بحاجة إلى توضيح أكثر فإن القرافي يقول: «ولفظ القرآن كله مخلوق في جبريل عليه السلام عند الأشاعرة»[5].

بل صرح بعض المعاصرين منهم صراحة بخلق القرآن فقال وهبي

---

(١) المستصفى: الغزالي ج١، ص٣٣٨.

(٢) شرح الكواكب المنير: ابن النجار، ج٢، ص١١، والملل والنحل: الشهرستاني، ج١، ص٩٦.

(٣) الإنصاف: الباقلاني، ص٩٩، والتمهيد ص ١٧٨.

(٤) التلخيص: الجويني: ج ١ ص ٢٣٥.

(٥) ميزان الأصول: السمرقندي، ص٨٤.

غاوجي: إن الكلام ينقسم إلى قسمين: الأول: الكلام اللفظي، والثاني: الكلام النفسي، فأما اللفظي: فهو ذلك القرآن الكريم المنزل على سيدنا محمد، وكذا سائر الكتب على الرسل عليهم السلام، ولا ريب في أن الكلام اللفظي مخلوق له تعالى[1].

أما الدكتور البوطي فقد عرض مذهب المعتزلة ثم قال: أما جماهير المسلمين أهل السنة والجماعة ـ يقصد الأشاعرة ـ فقالوا: إننا لا ننكر هذا الذي تقوله المعتزلة بل نقول به ونسميه كلاماً لفظياً، ونحن جميعاً متفقون على حدوثه وأنه غير قائم بذاته تعالى من أجل أنه حادث، ولكننا نثبت أمراً وراء ذلك وهو: الصفة القائمة بالنفس والتي يعبر عنها بالألفاظ[2].

والخلاصة أن المعتزلة يقولون: إن الله يخلق كلاماً في شيء من الجمادات، والأشاعرة يقولون الكلام نفسي أما اللفظ القرآني: فيخلقه الله في جبريل. وأما مذهب السلف الذي قامت عليه الأدلة والبراهين أن كلام الله حرف وصوت وأن القرآن كلام الله منه بدأ وإليه يعود وفي هذا رد علي مذهب المعتزلة الذين يرون أنه يبتديء من الجماد ومن أدلة أهل السنة قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾[3]. وقوله سبحانه: ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا﴾[4] فالمكالمة والنداء لا تكون إلا بصوت مسموع وإذا كان الأمر كذلك فأين الإمام مالك رحمه الله تعالى من هذه المذاهب الثلاثة.

---

(١) أركان الإيمان: وهبي سليمان غاوجي، ص٥٢.

(٢) كبرى اليقينيات الكونية: د. محمد سعيد رمضان البوطي، ص١٣٤.

(٣) سورة الأعراف: من الآية ١٤٣.

(٤) سورة مريم: من الآية ٥٢.

موقف مالك رحمه الله تعالى من مسألة خلق القرآن

أما المذهب الأول : مذهب المعتزلة ـ فحاشا ـ الإمام مالك أن يقول به وصريح عبارته شاهد على ذلك.

أما المذهب الثاني : فأول من أظهره ـ كما قلنا ـ أبو محمد عبد الله بن سعيد بن كُلاَّب البصري (ت بعد ٢٤٠) وتبعه في ذلك أبو الحسن الأشعري ـ رحمه الله تعالى ـ (ت٣٢٤) وكلاهما ظهر بعد وفاة الإمام مالك رحمه الله تعالى (ت١٧٩) ولو سبقهم لذلك لنسب إليه القول دونهما.

وإذا لم يكن الإمام مالك رحمه الله تعالى ذهب إلى مذهب المعتزلة ولا إلى مذهب الأشاعرة فتعين المذهب الثالث مذهب السلف، هذا دليل منطقي فضلاً عن عباراته الصريحة في ذلك.

فقد قال أبو حاتم الرازي: حدثني ميمون بن يحيى البكري قال: قال مالك: مَن قال: القرآن مخلوق. يستتاب، فإن تاب، وإلا ضُربت عنقه[1].

وقال ابن أبي أويس: سمعت مالكاً يقول: «القرآن كلام الله وكلام الله منه، وليس من الله شيء مخلوق»[2].

---

(١) مختصر العلو للذهبي: الألباني، ص١٤٣، والشفا: عياض، ج٢ ص٢٣٨.

(٢) مختصر العلو للذهبي: ص١٤٢ ـ ١٤٣، والشريعة: الآجري، ص٧١.

وروى عبد الله بن نافع قال: كان مالك بن أنس يقول: «القرآن كلام الله عز وجل ويستفظع قول من يقول: القرآن مخلوق، قال مالك: يوجع ضرباً ويحبس حتى يموت»[1].

والنصوص عنه رحمه الله تعالى في ذلك كثيرة وأكتفي بما ذكرت.

---

(١) الشريعة: الآجري، ص٧١،

علماء القيروان ومسألة خلق القرآن

صور شتى ومواقف مختلفة وأقوال متعددة لعلماء القيروان في مسألة خلق القرآن وسأحاول أن أرتب الحديث وأقسمه حتى يكون أدعى للاستيعاب وسأجعله على أربعة موضوعات:

الأول : أقوالهم ومواقفهم في هذه المسألة ومن أصحابها المعتزلة.

الثاني : المناظرات.

الثالث : المؤلفات.

الرابع : من امتحن منهم.

أولاً: أقوالهم ومواقفهم ، وجاءت على صور مختلفة فمنها:

١ ـ من نصوصهم في إنكار خلق القرآن:

ما قاله ابن أبي زيد القيرواني رحمه الله تعالى في رسالته: «وأن القرآن كلام الله ليس بمخلوق فيبيد، ولا صفة لمخلوق فينفد»[١].

وقال أسد بن الفرات رحمه الله تعالى: «القرآن كلام الله عز وجل وليس بمخلوق»[٢] وقال أبو سليمان داود بن يحيى رأيت

(١) شرح القيروانية الميسر: د. محمد الخميس، ص٢٨.

(٢) رياض النفوس: المالكي، ج١، ص٢٦٤.

أسد بن الفرات يعرض التفسير فتلا هذه الآية: ﴿فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى﴾[1] فقال أسد عند ذلك: «ويل لأهل البدع هلكت هوالكهم، يزعمون أن الله عز وجل خلق كلاماً، يقول ذلك الكلام المخلوق: (لا إله إلا أنا)[2].

وهذا سحنون ـ رحمه الله تعالى ـ لما امتحن وسأله القاضي محمد بن أبي الجواد عن القرآن أمام الأمير قال: أما شيء ابتدئه من نفسي فلا، ولكني سمعت مَنْ تعلمتُ منه وأخذتُ عنه كلهم يقولون: «القرآن كلام الله غير مخلوق»[3].

٢ ـ عد القول بأن القرآن ليس بمخلوق من أصول الإيمان:

فحين دخل سحنون على ابن القصار وهو مريض وكان من أصحابه، وأصابه في علته قلق، فقال له: «يا ابن القصار، ما هذا القلق الذي أنت فيه؟» قال: «الموت والقدوم على الله عز وجل» فقال له سحنون: «ألست مصدقاً بالرسل أولهم وآخرهم، والبعث، والحساب، والجنة والنار؟ وأن أفضل هذه الأمة بعد نبينا ﷺ أبو بكر ثم عمر؟ وأن القرآن كلام الله غير مخلوق؟ وأن الله تعالى يرى يوم القيامة؟ وأنه على العرش استوى ولا تخرج على الأئمة بالسيف وإن جاروا؟ قال: إي والله الذي لا إله إلا هو، فضرب سحنون بيديه على ضبعيه وقال له: مت إذا شئت، مت إذا شئت، ثم خرج عنه»[4].

٣ ـ وصف القول بخلق القرآن بأنه بدعة:

كما نقلت عن أسد قبل أسطر قوله: «ويل لأهل البدع. . .إلخ»

---

(١) سورة طه: الآيتان ١٢، ١٣.

(٢) رياض النفوس: ج١، ص٢٦٥.

(٣) معالم الإيمان: الدباغ، ج٢، ص٩٤، وسيأتي إن شاء الله تفصيل القصة.

(٤) رياض النفوس: ج١، ص٣٦٧ ـ ٣٦٨.

وصرح المالكي بأن أسد كان يبدع مَن يقول: بأن القرآن مخلوق[1] والنصوص في ذلك كثيرة.

٤ ـ ترك الصلاة على من مات منهم:

فقد رفض ابن غانم وابن فروخ والبهلول الصلاة على ابن صخر المعتزلي[2] وسبق ذكر القصة.

وفي ترجمة حياة البهلول بن عمرو التجيبي الذي نسب إليه نسبة ضعيفة القول بخلق القرآن، ولما مات وحملت جنازته وقل من كان معها من الناس ورمي نعشه بالحجارة وقال الناس: الوادي الوادي. أي القوة في الوادي[3].

وجاء ثلاثة إلى عون بن يوسف وقالوا: «مات عندنا رجل يقول بخلق القرآن، فما نصنع به؟ فقال: إن وجدتم مَن يكفيكم مؤنته فلا تقربوه، فسكتوا، ثم أعادوا السؤال ثانية فأجابهم بمثل الأول، ثم أعادوا السؤال ثالثة، فأجابهم بمثل ذلك، فقالوا: لا نجد مَن يكفينا مؤنته، فقال لهم: «اذهبوا فواروه من أجل التوحيد»[4].

---

(١) رياض النفوس: ج١، ص٢٦٤.

(٢) المرجع السابق: ج١، ص١٨٦.

(٣) طبقات علماء أفريقيا وتونس: أبو العرب، ص١٧٥.

(٤) رياض النفوس: ج١، ص٣٨٦، ولعلك تقول: إنه قد أذن لهم بالصلاة عليه فأقول نعم، وفرق بين أن يصلي هو وأن يأذن للعامة بالصلاة وقد وضح ابن عبد البر رحمه الله ذلك في شرحه لقول مالك رحمه الله أنه لا يصلى على أهل البدع فقال: «وأما قوله لا يصلى عليهم فإنه يريد أنه لا يصلي عليهم أئمة الدين وأهل العلم لأن ذلك زجر لهم وخزي لهم لابتداعهم رجاء أن ينتهوا عن مذهبهم»، الاستذكار لابن عبد البر ٦/ ١٣٠ عن كتاب عقيدة الإمام ابن عبد البر، ص١٥٤.

٥ ـ ترك الصلاة خلفهم:

فهذا سحنون ترك شهود الجمعة وراء معد بن عقال إذ كان يصلي بمسجد القيروان وكان يقول بخلق القرآن(١).

وحضر سحنون جنازة وتقدم ابن أبي الجواد (المعتزلي) فصلى عليها فرجع سحنون ولم يصل خلفه فبلغ ذلك الأمير زيادة الله فأمر بأن يوجه إلى عامل القيروان أن يضرب سحنون بن سعيد خمسمائة سوط ويحلق لحيته ورأسه إلا أن الوزير علي بن حميد دخل على الأمير فجعله يوقف العقوبة(٢).

٦ ـ الغلظة معهم والنهي عن مجالستهم والسلام عليهم:

فكان البهلول بن راشد يغلظ في معاملة مَن يقول: بخلق القرآن ويترك السلام عليه ورفض أن يعوده أبو محرز المعتزلي أثناء مرضه وقال: لمن جاء يستأذن له في الدخول لعيادته: قولوا له: إن كنت على رأيك فلا تقربنا(٣) وكان سحنون يقول: إنما اقتديت في ترك السلام على أهل الأهواء والصلاة خلفهم بمعلمي البهلول(٤).

وقال أبو عثمان سعيد بن الحداد: سمعت أبي يقول: مررت بسقيفة العراقي وهم يتناظرون في الاعتزال فوقفت أسمع منهم مناظرتهم فبلغ ذلك البهلول فلما جئته قال: يا محمد، بلغني أنك مررت بسقيفة العراقي فوقفت إليهم تسمع إلى مثل هذا، فلا تقربني، وأغلظ عليّ(٥).

---

(١) رياض النفوس ج١، ص٤٨٨، والمدارك: ج٢، ص٥١١ ـ ٥١٢.

(٢) المحن: أبو العرب، ص٤٥١ ـ ٤٥٢.

(٣) رياض النفوس: المالكي، ج١، ص٢٠٣.

(٤) المرجع السابق: ج١، ص٢٠٣.

(٥) المرجع السابق: ج١، ص٢٠٤.

وعاتب سحنون قائلاً: «يسلم عليك رجل من أهل الأهواء ويسألك عني!! فقال سحنون: والله ما رددت عليه جواباً قال: فقام لي عند ذلك وقال لي: مرحباً وأهلاً وسلم علي»[1].

٧ ـ نظرهم إليهم نظرتهم إلى الكفار والمشركين:

وذكر القاضي عياض: أن أبا إسحاق الجنياني نصح رجلاً فلم يمتثل الرجل لقوله فقال له: ما أراك تفلح والله. ما أراك تموت على الإسلام. فمات معتزلياً بعد ذلك[2].

وقال أبو هارون الأندلسي عن رجلين: ما أرى هذين الشيخين يموتان على الإسلام فلما وصل الشيخان إلى القيروان تشيع أحدهما وتمعزل الآخر[3].

٨ ـ كان الميت يوصي أن يكتب على قبره عقيدته في القرآن:

وبلغ من تمسكهم بمذهبهم أن كان الواحد منهم إذا حضرته الوفاة يوصي بأن يكتب على قبره: هذا قبر فلان بن فلان كان يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وأن القرآن كلام الله غير مخلوق، متحدياً للاعتزال جهاراً في حياته وبعد موته[4]. (قلت) مع أن الكتابة على القبور لا تجوز.

٩ ـ كتابة عقيدتهم على جدران المساجد:

فذكر السرّاج أن بصحن جامع سوسة بيت قد كتب فيه بخط قديم نقشاً في الحجر (القرآن كلام الله ليس بمخلوق) وكتب مثل ذلك

---

(١) رياض النفوس: ج١، ص٢٠٤.

(٢) المرجع السابق: ج١، ص٣٩٢.

(٣) المرجع السابق: ج١، ص٥٢٠.

(٤) المدارك: ج١، ص١١، مقدمة د. أحمد بكير محمود، وانظر القيروان ودورها في الحضارة الإسلامية: د. محمد زيتون، ص٣٣٨ ـ ٣٣٩، والأثر السياسي: د. السيد أبو العزم، ص٢٦٨.

أيضاً في عمد الجامع وذلك كله تنبيه على مذهب أهل السنة وتثبيت له بسبب كثرة ما كان بها وبجميع بلاد أفريقية في القديم من المذاهب المنحرفة عن المذهب السني[1].

١٠ ـ إعلان ذلك من على منبر الجمعة:

عندما أقنع الوزير الحضرمي الأمير إبراهيم بن أحمد بن الأغلب بعزل ابن أبي الحواجب المعتزلي عن إمامة الصلاة ليتولاها ابن طالب المالكي انتهز ابن طالب فرصة خطبة الجمعة ليعلن عن عقيدة المالكية ويسفه رأي المعتزلة فما كاد يعتلي المنبر حتى قال: «الحمد لله الذي يشكر على ما به أنعم، والحمد لله الذي عذب على ما لو شاء منه عصم، والحمد لله الذي على عرشه استوى، وعلى ملكه احتوى، وهو في الآخرة يرى»[2].

وذكر القاضي عياض أثر هذه الخطبة فقال: فَعَلَت سليمانَ بن عمران كآبةٌ، وتهلل وجه ابن سحنون[3].

ثانياً: المناظرات:

لا شك أن الصراع المذهبي بين المعتزلة والمالكية، وبين الشيعة والمالكية، قد أفاد المالكية في معرفة أصول الجدل والمناظرة ومدارسة ذلك حتى نشأت طائفة من علماء المالكية يسمون بأهل المناظرة والجدل.

---

(١) الحلل السندسية: السراج، ج١، ص٢٨٤، وانظر الأثر السياسي: ص٢٦٨ ـ ٢٦٩.

(٢) الطبقات: الخشني، ص١٣٢، ومعالم الإيمان: الدباغ، ج٢، ص١٣٢، وترتيب المدارك: ج٤، ص٢١٤.

(٣) ترتيب المدارك: القاضي عياض، ج٤ ص٢١٤، وانظر الأثر السياسي: ص٢٧٠ ـ ٢٧١.

وقد أحصى الأستاذ حسن حسني عبد الوهاب العلماء الأفارقة من أهل الكلام والجدل في خلال القرن الثالث وأوائل الرابع فبلغ به الإحصاء إلى نحو الثلاثين متكلماً، وعدَّ من المعتزلة في العصر نفسه ما يقارب العشرين رجلا[1].

وذكر الفاضل بن عاشور أن أهل السنة قد تتلمذوا على المعتزلة أولاً لاقتباس أساليبهم ثم انقلبوا ينصرون بتلك الأساليب والمذاهب الكلامية عقيدة أهل السنة ويثبتون ما نفاه المعتزلة[2].

وقد اشتهر عدد من المناظرين الذين ناظروا المعتزلة في مسألة خلق القرآن وكان الاجتماع يقع في قصور رقادة قال الأستاذ حسني: ولا أخالها إلا في قاعات (بيت الحكمة)[3].

ولم يناظر علماء القيروان معتزلة القيروان فحسب بل ناظروا مَن يقدم إلى القيروان من معتزلة المشرق أيضاً فقد كان المعتزلة في القيروان يستعينون بمعتزلة المشرق وحكى المالكي في رياضة فقال:

وحضر محمد بن سحنون يوماً عند علي بن حميد الوزير وكان علي يبغيه، وكان يجل محمداً ويعظمه ويكبره، وكان في مجلسه جماعة ممن يحسن المناظرة وأحضر معهم شيخاً قدم من المشرق يقال له أبو سليمان النحوي صاحب الكسائي الصغير وكان يقول بخلق القرآن ويذهب إلي الاعتزال، فقال علي بن حميد الوزير لمحمد: يا أبا عبد الله، إن هذا الشيخ وصل إلينا من المشرق وقد تناظر معه هؤلاء فناظره أنت: فقال محمد: تقول أيها الشيخ أو تسمع؟ فقال له

---

(١) ورقات: ج١، ص٢١٩.

(٢) أعلام الفكر الإسلامي: الفاضل بن عاشور، ص٤٢.

(٣) ورقات: ج١، ص٢١٣.

الشيخ: قل يا بني. فقال محمد: أرأيت كل مخلوق هل يذل لخالقه؟ فسكت الشيخ ولم يحر جواباً. ومضى وقت طويل وانحصر ولم يأت بشيء. فقال له محمد: كم سنة أتت عليك أيها الشيخ؟ فقال له: ثمانون سنة. فقال ابن سحنون للوزير ابن حميد: قد اختلف أهل العلم في الصلاة على الميت بعد سنة من يوم موته. فقال بعضهم: يصلى عليه، وأجمعوا أنه إذا جاوز السنة لا يصلى عليه، وهذا الشيخ له ثمانون سنة ميت في عداد الموتى. فقد سقطت الصلاة عليه بإجماع، ثم قام، فسر بذلك علي بن حميد وأهل المجلس، فسئل أين سحنون أن يبين لهم معنى سؤاله هذا، فقال: إن قال: إن كل مخلوق يذل لخالقه فقد كفر لأنه جعل القرآن ذليلاً لأنه يذهب إلى أنه مخلوق وقد قال الله عز وجل: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ۝٤١ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ۝٤٢﴾[1] وإن قال: إنه لا يذل فقد رجع إلى مذهب أهل السنة لأنه لا يذهب في هذه الحالة إلى أنه مخلوق الذي هو صفة مَن صفاته[2].

وهذا أبو عثمان سعيد بن الحداد الذي مثله أهل السنة بالقيروان بأحمد بن حنبل أيام المحنة ودارت بينه وبين الدعاة نحو الأربعين مجلساً[3].

وقال عنه المالكي: كانت له مجالس كثيرة مع أهل العراق (يعني القائلين بخلق القرآن) من أهل القيروان ثم ذكر مجلساً من مجالسه فقال: قال سعيد ـ رحمه الله ـ دخلت على إبراهيم (الأمير) وكان

(١) سورة فصلت: الآيتان ٤١، ٤٢.

(٢) رياض النفوس: ج١، ص٤٤٨ ـ ٤٤٩، ومعالم الإيمان: الدباغ، ج٢، ص١٣٤.

(٣) ورقات: ص٢٥٩.

حاضراً للمجلس ابن الكوفي وهو قاضيه يومئذ وابن الأشج وجماعة، فلما دخلت عليه أومى إليَّ، ولم أقبل له يداً ولا لغيره قط، قال: وأدناني حتى لصقت إلى سريره ثم أخذ بعض النافية وهم القائلون بخلق القرآن، فقال: أيها الأمير كثر التشبيه وفشا بالقيروان.. إلى أن قال: . . .ثم جرى ذكر تكلم الله تعالى لموسى ﷺ فقلت: ممن سمع موسى الكلام؟ قال ابن الأشج: من الشجرة، قلت: من ورقها أو من لحائها؟ قال أبو عثمان: فوالله ما درى أحد من أهل المجلس مرادي فيما ظهر لي إلا الأمير فبدر فقال لابن الأشج: اسكت ويلك!! خوفاً أن يجيب فيجب عليه القتل ـ قيل لأبي عثمان: وما أردت ـ أصلحك الله ـ بهذا الكلام؟ فقال: لأنه كل ما صرح فقال: بأنه من الشجرة على الحقيقة كفر، وزعم أن الله تبارك وتعالى لم يكلم موسى، وأنه لم يفضله بكلامه ـ قال: ـ ثم حول الأمير وجهه إليَّ فقال لي: أقول لك كما قلت لابن طالب: لا أقول مخلوقاً ولا غير مخلوق. قال: فقلت له: لِمَ؟ قال: لأن الله تعالى قال كلامي، ولم يقل مخلوقاً ولا غير مخلوق، قال فقلت له: فإن قال غيرك مثل ما قلت في علم الله سبحانه، فقال: إن الله عز وجل لم يقل مخلوقاً ولا غير مخلوق، وسلك في العلم مسلكك في الكلام قال: فقال والله لو قال ذلك أحد لقسمته بسيفي قال فقلت له: ولِمَ؟ قال: لأنه لو كان مخلوقاً لكان قبل أن يخلق العلم جاهلاً، لأن ضد العلم الجهل قال فقلت له: فكذلك لا يقال في الكلام مخلوق لأنه لو كان مخلوقاً لكان موصوفاً قبل خلقه بضده وهو الخرس وما لزم في العلم لزم مثله في الكلام، ودليل آخر أن العلم لا يعدو إحدى منزلتين:

إما أن يكون صفة فعل كان من الله عز وجل فمن شك في خلق ذلك فهو كافر ولعلم الله وقدرته ومن شك فلم يدر ذلك مخلوق أو غير مخلوق فهو كافر، والكلام لا يعدو هاتين المنزلتين، فالواقف

شاهد على نفسه بأنه تارك للقول بالحق حتماً، قال: فتبسم وبين لي أنه فهم ما كلمته به، وابن الأشج يكرر القول ويبديه، ويريد القول بالوقف، فأقبل عليَّ إبراهيم بن أحمد فقال لي: أقول لك كما كنت أقول لابن طالب: أنت لا تضطرني إلى مذهبك، وأنا لا أضطرك إلى مذهبي[1].

ومن هذا ترى أن المناظرات في القيروان كانت حامية بين المالكية والمعتزلة وقد أفرد الخشني باباً في طبقاته لمن عرف بالمناظرة من أهل القيروان[2].

ثالثاً: التأليف:

ولم يقف علماء القيروان عند حدّ ما ذكرنا بل ألف بعضهم مؤلفات في هذه المسألة مع ندرة مؤلفاتهم أو قلتها في مباحث العقيدة.

فقد أَلَّفَ سليمان الفراء المعروف بابن أبي عصفور كتاباً في خلق القرآن وآخر في مشكل القرآن، وحذا حذوه محمد بن الكلاعي فألَّف كتاباً للرد على مَن يقول بعدم خلق القرآن.

فتصدى لهما ولأمثالهما علماء القيروان فأَلَّفَ سعيد بن الحداد كتاباً يناقض فيه مَن يقول بخلق القرآن، كما أَلَّفَ إبراهيم بن البرذون كتاباً للرد على الكلاعي بين فيه خطأه وتقصيره فكان ذلك سبباً في وشاية الكلاعي به عند عبيد الله المهدي الذي أمر بقتله[3].

رابعاً: المحنة بالقول بخلق القرآن:

كأن ما يحدث في القيروان صدى لما يحدث في بغداد فحين

---

(١) رياض النفوس: ج٢، ص٧٠ ـ ٧٣.

(٢) طبقات: الخشني، ص٦١ ـ ٧٧.

(٣) الأثر السياسي: د. السيد محمد أبو العزم، ص٢٦٣.

ظهرت فتنة القول بخلق القرآن في بغداد ما لبثت أن ظهرت في القيروان، وحين امتحن الناس في بغداد ظهرت المحنة في القيروان وألزموا أيمة الجمعة بمراسيم رسمية لإعلان هذا القول بين العامة في المساجد، فهذا الأمير محمد بن أبي عقال (تولى الإمارة سنة ٢٢٣) يكتب السجلات بخلق القرآن ويأمر بقراءتها على المنابر ويحمل الناس عليها[(١)]، قال الدكتور عمار الهمادي: «أمام هذا الوضع وجد أهل السنة أنفسهم ملزمين للتصدي ومقارعة الحجة بالحجة حفاظاً على أنفسهم، مما أدى إلى جولات كلامية وجدل ساخن بين الطرفين»[(٢)].

ولما تولى الإمارة أحمد بن الأغلب سنة ٢٣١ حمل الناس وامتحنهم على القول بخلق القرآن وضاق أهل السنة بذلك واختار عدد منهم الفرار بدينهم فاعتزلوا الناس ولحقوا بالرباطات حيث الزهاد والنساك ووجدوا في الحصون الممتدة على طول السواحل خير ملجأ، وتمركزوا في قصور جهة المنستير، وجزيرة أبي شريك (أي الوطن القبلي حالياً) وصفاقس، وصطفورة (أي بنزرت حالياً)[(٣)].

وتعرض عدد من العلماء للامتحان بالقول بخلق القرآن فثبتوا وعدَّ أبو العرب ممن امتحن موسى بن معاوية الذي دخل على عبد الله بن أبي الجواد المعتزلي وهو يومئذ قاضي القيروان فقال موسى: سمعت فلاناً وفلاناً وذكر جماعة من أهل العلم يقولون: مَن قال القرآن مخلوق فهو كافر، فقال له ابن أبي الجواد: لقد أعمى الله

---

(١) تراجم أغلبية: ص٢٤٤، وانظر محمد بن سحنون المتكلم السني: د. عمار الهمادي، ص٤٦٥ ضمن بحوث ملتقى (القيروان مركز علمي مالكي).

(٢) محمد بن سحنون المتكلم السني: د. عمار الهمادي، ص٤٦٥.

(٣) السلطة والعلماء بأفريقيا في العهد الأغلبي: د. فريد سليمان، ص٢٩١، ضمن بحوث ملتقى الإمام سحنون.

قلبك كما أعمى عينيك، وكان موسى بن معاوية يومئذ قد كف بصره.

ـ وقال أبو العرب ـ: وحدثني أحمد بن يزيد قال: بعث إلي ابن أبي الجواد القاضي ليمتحنني في القرآن، قال: فتواريت منه حتى عافاني الله[1].

محنة الإمام سحنون رحمه الله تعالى:

وصف أبو العرب هذه المحنة فقال: حدثني محمد بن محمد الطرزي عن محمد بن سحنون أنه قال: لما ولي أبو جعفر أحمد بن الأغلب العهد لأخيه محمد بن الأغلب وكانت الإمارة لمحمد بن الأغلب ففوض إليه الأمر والنهي ودعا الناس إلى المحنة في خلق القرآن وأظهره على المنابر في كثير من المساجد فتوجه سحنون بن سعيد إلى عبد الرحيم بن عبد ربه الزاهد بقصر زياد المرابط فكان عنده مقيماً مرابطاً، ثم إن أبا جعفر وجه في طلب سحنون رجلاً يقال له ابن سلطان، وكان من أغلظ الناس على سحنون بن سعيد وأشدهم له بغضاء وإنما اختاره لذلك ليعنف بسحنون، قال: فأتاه ابن سلطان برسالة الأمير أبي جعفر، فوجده مع عبد الرحيم، فقال له ابن سلطان وهو من بني حمزة: إنما وجهني الأمير في طلبك لما يعلم من بغضي لك، وقد حالت نيتي عن ذلك، وأنا أبذل دمي دونك فإن شئت فاذهب حيث تراه من البلاد، وإن شئت فأقم ها هنا ما بدا لك وأنا معك مقيم، قال: فشكر له ذلك سحنون، وقال: ما كنت لأعرضك أبداً بل أذهب معك.. إلى أن قال:.. فلما وصل سحنون إلى أبي جعفر جمع له قواده ووزراءه وقاضيه ابن أبي الجواد، وكان في القوم داود بن حمزة القائد، فقال أبو جعفر لسحنون: ما تقول في القرآن،

(١) المحن: أبو العرب، ص٤٤٩.

فقال سحنون: أصلح الله الأمير، أما شيء أبديه من نفسي فلا، ولكن الذي سمعت ممن تعلمت منه وأخذت ديني عنه، فهم كانوا يقولون: إن القرآن كلام الله وليس بمخلوق، قال: فقال له ابن أبي الجواد: أيها الأمير إنه قد كفر، فاقتله ودمه في عنقي، وقال مثل ذلك نصر بن حمزة القائد وغيره، فقال لداود بن حمزة: ما تقول يا داود، قال: أصلح الله الأمير، قتله بالسيف راحة له، ولكن اقتله قتل الحياة، يؤخذ عليه الحملاء ـ يعني الكفلاء ـ وينادي عليه بسماط القيروان: لا يفتي ولا يسمع أحداً، ويلزم داره، ففعل ذلك أبو جعفر وترك قول من أشار عليه بقتله، وأمر بأحد عشر حميلاً، فكان ممن تحمَّل به ابن علاقة وغيره ومنع الله ـ عز وجل ـ القوم من قتله[1].

قال أبو العرب: «فما أتى على ذلك إلا حول واحد وغلب أبو العباس محمد بن الأغلب على أخيه أبي جعفر ووفده إلى المشرق ومات بها، ثم ولي الأمير أبو العباس القضاءَ سحنون بن سعيد بعد ما أداره عليه حولاً»[2].

أما محمد بن سحنون ـ رحمه الله تعالى ـ فتوارى خوفاً على نفسه من سليمان بن عمران قاضي محمد بن الأغلب لمخالفته له في المذهب ورفضه القول بخلق القرآن، وظل متوارياً حتى أمنه محمد بن الأغلب ورفع يد سليمان عنه[3].

---

(١) المحن: أبو العرب، ص٤٤٩ ـ ٤٥١.

(٢) المحن: ص٤٥٢.

(٣) معالم الإيمان: الدباغ، ج٢، ص١٣١ ـ ١٣٢، ترتيب المدارك: عياض، ٤ ص٢١٢.

الخاتمة

الحمد لله وبعد فهذا ما يسر الله لي كتابته ولي في آخره دعوة ورجاء ودعاء.

أما الدعوة : فإلى أتباع كل مذهب من المذاهب الأربعة أعني: (الحنفي والمالكي والشافعي والحنبلي) أن يحققوا مذهبهم العقدي ويتحروا فيه مثل ـ بل أكثر ـ من تحريهم في المذهب الفقهي، وأن لا يجدوا في أنفسهم حرجاً فإذا ما استبان لهم الصواب فعليهم اتباعه وليس في ذلك غضاضة بل الغضاضة أن يدرك الإنسان الحق فيعرض عنه فإن العصبية العقدية أخطر ـ والله ـ من العصبية الفقهية.

أقول هذا وإن كنت أحسب أن سيفجأ بعضَ من أَلِفُوا ما تلقوه من علوم، واعتادوا التلقي بدون تفكر ولا نظر ووالله ـ وها أنذا أكتب ما أكتب في الحرم المكي في نهار رمضان ـ أني لا أقصد بهذه الدعوة أتباع مذهب دون آخر وإن كان حديثي هنا وما أكتبه عن علماء القيروان والمذهب المالكي فإن الذي حملني على ذلك هو موضوع الملتقى الخاص بالمذهب المالكي فاهتبلتها فرصة أنفذ منها إلى دعوة عامة.

أما الرجاء : فأوجهه إلى كل من وجد في بحثي نقصاً أن لا يكتمه وأن يكتب لي ما يراه صواباً فالمسلم مرآة أخيه المسلم، والنصيحة واجبة بين المؤمنين إذا رأوا ما يوجب ذلك. ولهم من الله الأجر والثواب.

أما الدعاء : فأن يجعل الله عملي خالصاً لوجهه وأن ينفع به كاتبه وقارئه ومن بلغه وسائر المسلمين إنه سميع مجيب.

وأخيراً : فهذا ما كتبت فإن كان صواباً فمن الله وإن كان غير ذلك فمني ومن الشيطان واستغفر الله منه ومن كل ذنب إنه غفور رحيم، انتهيت من كتابته بعد عصر يوم الاثنين ١٦ من رمضان في الحرم المكي زاده الله تشريفاً، ومن حسن التوافق أن اليوم التالي لكتابته هو اليوم السابع عشر يوم بدر وبين هذا اليوم وبين القيروان وشيجة أشار إليها أبو القاسم محمد بن عبد الله الفزاري حين وصف القيروان مبيناً فضلها على بغداد فقال:

بلاد خطها أصحاب بدر وتلك اختط ساحتها أمير
بناها كل بدري كريم كأن صفاح أوجههم بدور

فسلام عليهم وسلام على أهل القيروان..

أ. د. فهد بن عبد الرحمٰن الرومي
مكة المكرمة ـ المسجد الحرام
١٦/٩/١٤١٦هـ

المصادر

١ ـ إثبات صفة العلو: ابن قدامة، الدار السلفية، الكويت، الطبعة الأولى، ١٤٠٦ هـ.
٢ ـ الأثر السياسي والحضاري للمالكية في شمال أفريقيا حتى قيام دولة المرابطين: د. السيد محمد أبو العزم داود المكتبة الفيصلية، مكة المكرمة، ١٤٠٥ هـ.
٣ ـ اجتماع الجيوش الإسلامية: ابن القيم تحقيق د. عواد المعتق، الطبعة الأولى، ١٤٠٨ هـ، مطبعة الفرزدق، الرياض.
٤ ـ الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد: أبو المعالي الجويني تحقيق د. محمد يوسف موسى وعلي عبد المنعم عبد الحميد، القاهرة ١٣٦٩ هـ، مكتبة الخانجي.
٥ ـ أركان الإيمان: وهبي سليمان غاوجي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٣٩٧ هـ.
٦ ـ الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى: أبو العباس أحمد بن خالد الناصري السلاوي، تحقيق جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب، المغرب، ١٩٥٤ م.
٧ ـ أعلام الفكر الإسلامي في تاريخ المغرب العربي: محمد الفاضل بن عاشور، مكتبة النجاح، تونس.
٨ ـ الإمام مالك مفسراً: جمع وتحقيق حميد لحمر، دار الفكر، بيروت، ١٤١٥هـ.
٩ ـ الإنصاف فيما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل به: أبو بكر الباقلاني، الطبعة الثانية، مؤسسة الخانجي، ١٣٨٢ هـ.
١٠ ـ البحر المحيط: برهان الدين الزركشي، تحقيق محمد بن عبد الرزاق الدويش، رسالة دكتوراه، كليه الشريعة، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية (مطبوعة على الآلة الكاتبة).
١١ ـ تراجم أغلبية مستخرجة من مدارك القاضي عياض: أخرجها محمد الطالبي، تونس، ١٩٦٨ م.

١٢ ـ ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك: القاضي عياض بن موسى بن عياض السبتي، تحقيق عبد القادر الصحراوي، الطبعة الثانية، ١٤٠٣ هـ، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، وطبعة مكتبة الحياة، بيروت، تحقيق د. أحمد بكير محمود.

١٣ ـ التلخيص في أصول الفقه: لأبي المعالي الجويني، تحقيق د. عبد الله النيبلي وشبير العمري، مكتبة دار الباز ـ مكة المكرمة، الطبعة الأولى، ١٤١٧.

١٤ ـ التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد: ابن عبد البر، تحقيق عبد الله بن الصديق، مؤسسة قرطبة، ١٣٩٩ هـ.

١٥ ـ جامع أحكام القرآن: القرطبي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٦٧ م.

١٦ ـ الحلل السندسية في الأخبار التونسية: محمد الأندلسي الوزير السرّاج تحقيق محمد الحبيب هيلة، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، ١٩٨٥ م.

١٧ ـ خلق القرآن بين المعتزلة وأهل السنة: فخر الدين الرازي، تحقيق د. أحمد حجازي السقا، دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٣ هـ.

١٨ ـ الرد على الجهمية: عثمان بن سعيد الدارمي: ١٩٦٠ م، برايل ليدن.

١٩ ـ رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية: أبو بكر عبد الله بن محمد المالكي، تحقيق بشير البكوش، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٤٠٣ هـ.

٢٠ ـ سنن الترمذي: أبو عيسى الترمذي، تحقيق وشرح أحمد بن محمد شاكر، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٢١ ـ السنة: لأبي عبد الرحمن عبد الله بن أحمد بن حنبل، تحقيق د. محمد بن سعيد القحطاني، الطبعة الأولى، ١٤٠٦ هـ، دار ابن القيم، الدمام، السعودية.

٢٢ ـ شذرات الذهب: عبد الحي بن العماد الحنبلي، المكتب التجاري، بيروت.

٢٣ ـ شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة: هبة الله بن الحسن الطبري اللالكائي، تحقيق د. أحمد سعد حمدان، الطبعة الأولى، دار طيبة، الرياض، ١٤٠٢ هـ.

٢٤ ـ شرح الشفا للقاضي عياض: الملا علي القاري، دار الكتب العلمية، بيروت.

٢٥ ـ شرح العقيدة الطحاوية: ابن أبي العز الحنفي، تحقيق جماعة من العلماء، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٣٩١ هـ.
٢٦ ـ شرح الكواكب المنير: محمد بن أحمد الفتوحي ابن النجار، تحقيق د. نزيه حماد، د. محمد الزحيلي، مركز البحث العلمي بجامعة أم القرى، دار الفكر، دمشق، ١٤٠٠ هـ.
٢٧ ـ شرح القيروانية الميسر: د. محمد بن عبد الرحمن الخُميّس، دار الوطن، الرياض، السعودية، الطبعة الأولى، ١٤١٤ هـ.
٢٨ ـ الشريعة: أبو بكر محمد بن الحسين الآجري، تحقيق محمد بن الحسن إسماعيل، الطبعة الأولى ١٤١٦ هـ، دار الباز، مكة المكرمة.
٢٩ ـ الشفاء بتعريف حقوق المصطفى: القاضي عياض، الطبعة الأخيرة، ١٣٦٩ هـ، مصطفى الحلبي، مصر.
٣٠ ـ صحيح البخاري: المكتبة الإسلامية، استانبول، تركيا، ١٩٧٩ م.
٣١ ـ صحيح مسلم: الناشر رئاسة إدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، السعودية، عام ١٤٠٠ هـ، تحقيق تصحيح محمد فؤاد عبد الباقي.
٣٢ ـ طبقات الشافعية الكبرى: عبد الوهاب السبكي، تحقيق عبد الفتاح الحلو ومحمود الطناحي، الطبعة الأولى، ١٣٨٨ هـ، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة.
٣٣ ـ طبقات علماء أفريقية: الخشني، تحقيق د. محمد زينهم محمد عزب، مكتبة مدبولي، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١٣ هـ.
٣٤ ـ طبقات علماء أفريقية وتونس: أبو العرب محمد التميمي القيرواني، تحقيق علي الشابي، ونعيم اليافي، الدار التونسية، تونس، والمؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، الطبعة الثانية، ١٩٨٥ م.
٣٥ ـ عقيدة الإمام ابن عبد البر في التوحيد والإيمان: سليمان بن صالح الغصن، دار العاصمة، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٦ هـ.
٣٦ ـ العلو للعلي الغفار: الإمام الذهبي، تقديم عبد الرحمن محمد عثمان، الطبعة الثانية، ١٣٨٨ هـ، دار الفكر.
٣٧ ـ الفواكه العذاب في معتقد الشيخ محمد بن عبد الوهاب في الصفات: حمد بن ناصر بن عثمان آل معمر، تحقيق عبد الرحمن بن عبد الله التركي، الطبعة الأولى، ١٤١٥ هـ، مؤسسة الرسالة بيروت.

٣٨ ـ القاموس المحيط: الفيروز آبادي، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى ١٤٠٦.

٣٩ ـ القيروان عبد الندوات الإسلامية: مركز الدراسات الإسلامية بالقيروان، الإصدارة الثالثة، الطبعة الأولى، ١٤١١ هـ، تونس.

٤٠ ـ القيروان ودورها في الحضارة الإسلامية: د. محمد محمد زيتون، دار المنار، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٠٨ هـ.

٤١ ـ الكامل في التاريخ: لابن الأثير، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٤٠٣ هـ.

٤٢ ـ كبرى اليقينيات الكونية: د. محمد سعيد رمضان البوطي، دار الفكر، الطبعة الثالثة، ١٣٩٤ هـ.

٤٣ ـ مالك حياته وعصره آراؤه وفقهه: محمد أبو زهرة، ملتزم الطبع والنشر دار الفكر العربي.

٤٤ ـ مباحث في المذهب المالكي بالمغرب: د. عمر الجيدي، الطبعة الأولى، ١٩٩٣ م، الناشر المؤلف نفسه.

٤٥ ـ مجموع فتاوى ابن تيمية: جمع وترتيب عبد الرحمن بن قاسم، طبع على نفقة ولي العهد فهد بن عبد العزيز آل سعود، تصوير عن الطبعة الأولى، ١٣٩٨ هـ.

٤٦ ـ محاضرات ملتقى (القيروان مركز علمي مالكي بين المشرق والمغرب حتى نهاية القرن الخامس للهجرة، مركز الدراسات الإسلامية، القيروان، الطبعة الأولى، ١٩٩٥ م.

٤٧ ـ المحصول في علم أصول الفقه: فخر الدين محمد بن عمر الرازي، تحقيق طه جابر العلواني، الطبعة الأولى، ١٣٩٩ هـ، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض.

٤٨ ـ المحن: أبو العرب محمد بن أحمد بن تميم التميمي، تحقيق د. يحيى الجبوري، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الثانية، ١٤٠٨ هـ، بيروت.

٤٩ ـ مختصر العلو للذهبي: اختصار وتحقيق محمد ناصر الدين الألباني، الطبعة الثانية، ١٤٠١ هـ، المكتب الإسلامي، بيروت.

٥٠ ـ المدارس الكلامية بأفريقية إلى ظهور الأشعرية: د. عبد المجيد بن حمدة، الطبعة الأولى، ١٤٠٦ هـ، مطبعة دار العرب، تونس.

٥١ ـ مدرسة الحديث في القيروان من الفتح الإسلامي إلى منتصف القرن الخامس الهجري: د. الحسين شواط، الدار العالمية للكتاب الإسلامي، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١١ هـ.
٥٢ ـ المسائل المشتركة بين أصول الفقه وأصول الدين: د. محمد العروسي عبد القادر، دار حافظ للنشر والتوزيع، جدة، السعودية، الطبعة الأولى، ١٤١٠ هـ.
٥٣ ـ المستصفى: أبو حامد الغزالي، مؤسسة الحلبي وشركاه، القاهرة، مصورة عن طبعة المطبعة الأميرية ببولاق، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٣٢٢ هـ.
٥٤ ـ معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان: أبو زيد عبد الرحمن الأنصاري الأسيدي الدباغ، تحقيق د. محمد الأحمدي أبو النور ومحمد ماضور، المكتبة العتيقة، تونس.
٥٥ ـ المعتمد في أصول الفقه: لأبي الحسين محمد بن علي بن الطيب البصري المعتزلي تحقيق محمد حميد الله، المعهد العلمي الفرنسي، للدراسات العربية بدمشق، ١٤٨٤ هـ.
٥٦ ـ مقدمة ابن خلدون: الطبعة الثالثة، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
٥٧ ـ الملل والنحل: أبو الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني، تحقيق محمد سيد كيلاني، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ١٣٨٧ هـ.
٥٨ ـ المواعظ والاعتبار (خطط المقريزي): دار صادر، بيروت.
٥٩ ـ ميزان الأصول في نتائج العقول: علاء الدين أبو بكر السمرقندي، تحقيق د. محمد زكي عبد البر، مطابع الدوحة، قطر، ١٤٠٤ هـ.
٦٠ ـ مناقب الإمام أحمد بن حنبل: ابن الجوزي، تحقيق د. عبد الله بن عبد المحسن التركي، يوزع على نفقة الملك خالد بن عبد العزيز آل سعود رحمه الله تعالى، الطبعة الثانية، ١٤٠٩ هـ.
٦١ ـ نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب: أحمد بن محمد المقري، تحقيق د. محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الكتاب العربي، بيروت.
٦٢ ـ ورقات في الحضارة العربية بأفريقيا التونسية: حسن حسني عبد الوهاب، مكتبة المنار، تونس، ١٩٦٥ م.
٦٣ ـ وفيات الأعيان وأبناء أنباء الزمان: ابن خلكان، تحقيق د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٣٩٧ هـ.

للمؤلف

تأليف:

١ - منهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير (مجلدين) الطبعة الخامسة ١٤١٤.

٢ - اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر (٣مجلدات) الطبعة الثانية ١٤١٤.

٣ - الصلاة في القرآن الكريم مفهومها وفقهها الطبعة السادسة ١٤١٤.

٤ - خصائص القرآن الكريم الطبعة الثامنة ١٤١٤.

٥ - دراسات في علوم القرآن الكريم الطبعة الرابعة ١٤١٥.

٦ - بحوث في أصول التفسير ومناهجه الطبعة الثالثة ١٤١٧.

٧ - قصة عقيدة الطبعة الأولى ١٤١٤.

٨ - البدهيات في القرآن اكريم (دراسة نظرية) الطبعة الأولى ١٤١٧.

٩ - البدهيات في الحزب الأول من القرآن الكريم (دراسة تطبيقية) الطبعة الأولى ١٤١٧.

١٠ - وجوه التحدي والإعجاز في الأحرف الهجائية المقطعة في أوائل السور الطبعة الأولى ١٤١٧.

١١ - التفسير الفقهي في القيروان حتى القرن الخامس الهجري الطبعة الأولى ١٤١٧.

١٢ - منهج المدرسة الأندلسية في التفسير (صفاته وخصائصه) الطبعة الأولى ١٤١٧.

١٣ - مسألة خلق القرآن وموقف علماء القيروان منها الطبعة الأولى ١٤١٧.

تحقيق:

١ - تفسير سورة الفاتحة للإمام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى الطبعة الخامسة ١٤٠٩.

٢ ـ تفسير سورة الفلق للإمام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى الطبعة الثالثة ١٤١٤.

٣ ـ تفسير سورة الناس للإمام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى الطبعة الثانية ١٤١٤.

٤ ـ تفسير سورة الفاتحة للإمام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى (مختصر) الطبعة الثانية ١٤١٥.

٥ ـ فضائل القرآن الكريم للإمام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى الطبعة الأولى ١٤١٧.

بالاشتراك:

١ ـ الموسوعة الإسلامية الميسرة (مجموعة من الباحثين من العالم الإسلامي) ١٠ مجلدات.

٢ ـ طرق تدريس التجويد وأحكام تعلمه وتعليمه (مع الدكتور محمد الزعبلاوي) الطبعة الأولى ١٤١٧.

المحتويات